

الفصل الرابع

أثر الغزو المغولي على الحياة الفكرية

فلا إقليدس خوارزمي المغول



أولاً: المغول:

كانت قبائل المغول التي نشأت في النهضة المعروفة بهضبة منغوليا^(١) شمال صحراء جوبي^(٢) من أهم وأبرز هذه القبائل^(٣)، وكانت تعيش عيشة بدوية لا تعرف معنى الحضارة، كما كانت تتجول في شمال صحراء جوبي، وتسعى وراء العشب والنبات^(٤). هذه الظروف الجغرافية، والعيشة الصحراوية التي تعيش فيها هذه القبائل، فقد كانت الجبال المحيطة بهذه الضبة تمنع عنها الرياح الدافئة الممطرة في فصل الصيف، أما في الشتاء فنرى مناخها شديد البرودة، فكان من أثر ذلك أن انعدمت الزراعة في أكثر جهاتها، بحيث لم تشاهد إلا في أماكن متفرقة^(٥)، كما كان يجاور المغول^(٦) طوائف من الترك يعيشون حياة بدائية أشبه بحياة المغول أنفسهم، وكانت طبيعتهم لا تساعد على

(١) منغوليا: هي مملكة متاخمة لبلاد الصين ويسكنها جنس من الترك. ابن عرب شاه: (أحمد بن محمد)، ت٨٤٥هـ/١٤٠٥م، فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، تقديم وتحقيق وشرح د/محمد رجب النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣.

(٢) جوبي: لفظ مغولي معناه "الصحراء الجدياء الخاوية" فامبرى: تاريخ بخارى، حاشية (١)، ص١٦١، لمزيد من التفاصيل راجع: ماركو بولو: رحلات ماركو بولو، ترجمها إلى الإنجليزية وليم مارسن، ترجمها إلى العربية عبد العزيز جاويد، ج١، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م، ص١١٤، حواشى الفصل السادس والثلاثين، ط١، ص٢٥٤.

(٣) النسوى: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص١١، حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص١٢٦.

(٤) عبد السلام عبد العزيز فهمى: تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ص٩، الساداتى: محاضرات فى التاريخ الإسلامى ص١٨٨.

(٥) حافظ أحمد حمدى: الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، ط١، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص١٢٩.

(٦) عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص١٨، محمد عبد العظيم: تاريخ المسلمين وحضارتهم فى آسيا، ص١١٠.

التعايش مع جنس آخر، كما كانوا يعيشون على البداوة وسكن الخيام والترحال الدائم، والسعى إلى الكلاً والغارة على الممالك العامرة وعلى الصين وما وراء النهر وإيران^(١).

هكذا عاش المغول هذه الظروف البيئية الصعبة والحياة المناخية القاسية حيث كان المغول فى العصر الذى نتحدث عنه، يحتلون الأراضى الواقعة بين بحيرة بيكال فى الغرب، وجبال كنجان على حدود منشوريا فى الشرق^(٢).

من هذا المسح الموجز للوضع الجغرافى لهذا الجزء الذى يسكن فيه الغول، يتضح أن الغول قبائل رحل، لا تعرف المدينة ولا الحضارة، وكانوا يقضون معظم أوقاتهم فى المنازعات، والمنافسات، والتنقلات، سعياً وراء الرزق والمعيشة، لا منطق بينهم إلا القوة ولا حكم إلا بالسيف^(٣).

على أن هذه الفوضى الاجتماعية السائدة فى هذه الأماكن كانت فى حاجة ملحة إلى الإصلاح على يد زعيم يخرج من بين هذه القبائل، فيتمكن من توحيدها ثم النهوض بها^(٤). وكان الزعيم هو "تيموجين"^(٥) الذى استطاع بدهائه أن يجمع شمل القبائل المغولية المتفرقة، وأن ينصب نفسه خاقاناً عليها سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م، ثم بدل اسمه إلى جنكيز خان^(٦)، إيلاً أعظم الحكام، أو إمبراطور البشر، واتخذ من مدينة قره قورم^(٧) حاضره لملكه^(٨).

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٤٧.

(٢) حافظ حمدى: الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، ص ١٢٩

LAMP: Genghis Khan; The Emperor of All Men, (London 1934) P.25

(٣) فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، جزءان، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ١٩٨٠م، ج ١، ص ٣٣، ٣٤.

(٤) حافظ أحمد حمدى: الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، ص ١٢٩، عفاف سيد صبرة: التاريخ السياسى للدولة الخوارزمية، ط ١، نشر دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.

(٥) تيموجين: لفظ صينى معناه الصلب الفائق، ومنها "تيمورج" بمعنى الحداد ومن معانيها أيضاً الفارس الكامل. السيد الباز العرينى: المغول، نشر دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨١م، ص ١١٠، ١١١.

(٦) جنكيز خان: جنكيز تعنى القوة، مكونة من مقطعين الأول "جين" ومعناه فى اللغة المغولية "العظمة"، والثانى "كيز" ويعنى الأكثر أى أنها الأكثر عظمة وقوة، وتذكر دائرة المعارف التركية أن كلمة "جنكيز" مشتقة من الكلمة التركية Dinez أى البحر. لمزيد من التفاصيل راجع الجوينى: عطا ملك الجوينى، ت ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م، ترجمة د/ السباعى محمد السباعى، المجلد الأول، نشر دار الزهراء، القاهرة، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م، ص ٤٢.

(٧) قره قورم: وتسمى أيضاً قراقورم من أماكن بلاد الترك الشرقية، بفتح القاف والراء المهملة ثم ألف وقاف مضمومة وواو ساكنة وميم، معناه بالتركية الرمل الأسود، وهى قاعدة المغول. أبو الفدا: تقويم البلدان، ص 504٥٠٥، القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٨٠.

(٨) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٢٨، فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٦٣.

واستطاع جنكيز خان السيطرة على غالبية المنطقة المغولية، بالسيطرة أحيانا، وبالغرب أحيانا، كما قضى أياما عصيبة وقاسية^(١)، كل ذلك أكسبه قوة على تحمل الشدائد والصعوبات، وصنع منه رجلا صلبا حديديا أدهش العالم^(٢).

وبذلك أصبحت مساكن المغول بقيادة جنكيز خان، تجاور لدولة كبيرة هي دولة الأتراك القراخانيين، كما كان شاطئ نهر سيحون^(٣) هو الحد الفاصل بين هذه الدولة وأقاليم الدولة الخوارزمية^(٤).

ولقد تمكن جنكيز خان من السيطرة على جميع القبائل التي كانت تخضع لدولة الأتراك القراخانيين، ودخلت جميع القبائل التركية تحت السيطرة المغولية، مما نتج منه مجاورة جنكيز خان لأملاك الدولة الخوارزمية، فأصبح الاصطدام متوقعا بين الطرفين في كل لحظة ما دامت أسبابه ودوافعه متوفرة عندهما والمتمثلة في مطامع جنكيز خان ورغبته في التوسع^(٥).

ثانيا: العلاقة بين المغول والدولة الخوارزمية قبيل الغزو المغولي:

بعد أن جاورت أملاك المغول ممتلكات الدولة الخوارزمية، نتج عنه بداية في العلاقات بين المغول والدولة الخوارزمية. فأصبح الصدام متوقعا بين الطرفين.

كان أول صدام بين الدولة الخوارزمية والمغول، وأن اختلف الروايات في تحديد زمن أول ما وقع من صدام بين جيوش جنكيز خان، وعساكر خوارزمشاه، فمن هذه الروايات ما يشير إلى أن المغول لم يشتبكوا في قتال الخوارزمية إلا سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م، أي بعد القضاء على الدولة القراخانية^(٦).

على أن الثابت أنه أنه في شتاء (٦١٢ هـ / ١٢١٥ - ١٢١٦ م) كان الصدام الأول، حيث مر السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه بمدينة جند (بالقرب من نهر

(١) الجويني: جهان كشا، مج ١، ص ٤٢، السادتي: محاضرات في التاريخ الإسلامي، ص ١٨٨

(٢) عفاف سيد صبره: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ص ١٥٣.

(٣) نهر سيحون: بفتح أوله وسكون ثانية وحاء مهملة وآخره نون، نهر مشهور كبير بما وراء النهر قرب خجندة بعد سمر قند يجمد في الشتاء حتى تجوز على جمده القوافل وهو في حدود بلاد الترك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٣، ص ٥، ج ٥، ص ١٠٢.

(٤) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٤٩، عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ١٩٢٠.

(٥) عبد السلام فهمي: المصدر السابق، ص ٢٠ وما بعدها.

(٦) السيد الباز العربي: المغول، حاشية ١، ص ١١١.

جيحون وقبالة بلاد تركستان) قاصدا صحراء قرغيز موطن عشائر القبجاق^(١). وهناك وجد فرقة من جنود جنكيز خان بقيادة ابنه جوجى بغرض مطاردة المتمردين المغول، ولم يكن جوجى وسائر قواده يميلون إلى قتال المسلمين. لذا فقد أرسلوا رسالة إلى السلطان علاء الدين محمد ينبئونه فيها أنهم لن يوفدوا من قبل خان المغول، إلا لصد المتمردين ومطاردة الفارين. فتلبس الغرور السلطان محمد خوارزمشاه فرد بأن الكفار عنده جميعا سواء وكلهم أعداء للمسلمين، وأصدر أمرا بمهاجمة جند جنكيز خان. ولم تسفر المعركة عن نتيجة^(٢). فقد أبدى جوجى وأتباعه بسالة فى النهار، وأشعلوا النيران فى جنح الليل ولاذوا بالفرار، وعاد السلطان محمد إلى سمرقند فى صيف ٦١٣هـ / ١٢١٦م^(٣).

وكان لهذا الصدام تأثير كبير على فكر السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، فقد أظهرت له القوة العسكرية للمغول. وكان ذلك من الأسباب التى أجبرت خوارزمشاه على التقهقر وتجنب مواجهة هؤلاء القوم على أرض القتال^(٤). واوفد السلطان محمد خوارزمشاه بعد الوقوف على قوة المغول الرسل برسالة إلى جنكيز خان، بقيادة السيد الأجل بهاء الدين الرازى، وذلك للتأكد من هذه القوة العظيمة للمغول^(٥).

استقبل جنكيز خان وفد خوارزمشاه محمد بكل احترام، وأرسل معهم برسالة يقول فيها للسلطان ان جنكيز خان يعد نفسه ملكا على الشرق، كما يعد خوارزمشاه حاكما على الغرب، وأنه يتطلع إلى السلام بينهما وإلى حرية حركة القوافل والتجار بين بلاد خوارزم وجنكيز^(٦).

وتأكيدا لهذه الرابطة التجارية التى اقترحها جنكيز خان، فقد أرسل مع السفير الخوارزمى ثلاثة سفراء من التجار المسلمين وهم محمود يلواج الخوارزمى، وعلى خواجه البخارى، ويوسف كنكا^(٧) الأترارى^(٨)، وحملت إلى خوارزمشاه الهدايا الثمينة من

(١) القبجاق: قبائل بدوية وكانوا يحفون بحدود البلاد الإسلامية الواقعة فى جنوب بلادهم، كما كانوا جيرانا للخوارزميين. بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٧٧، العرينى: المغول: ص ١١٢، ١١٣.

(٣) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين، ص ٤٨.

(٤) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦١.

(٥) الجوينى: جهان كشا، مج ١، ص ١٦٩.

(٦) عباس إقبال: تاريخ، ص ٦٢.

(٧) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين منكبرى، ص ٨٣، الجوينى: جهان كشا، مج ١، ص ١٧١.

(٨) الأترارى: نسبة إلى مدينة أترار أو أطرار، وهى مدينة فاراب. كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، =

الذهب والأحجار الكريمة والمسك والأثواب المصنوعة من وبر الإبل والتي لا تهدي إلا للسلطين^(١).

وقبل السلطان إقرار هذه المعاهدة، فقد سلمه الرسل هذه الرسالة^(٢) التي وجهها إليه جنكيز خان، والتي تشتمل على طلب المسالمة والموادة وسلوك مسلك المجاملة^(٣).

ويقول النسوي^(٤): أن السلطان استحضر محمود يلواج الخوارزمي ليلا دون سائر اللاسل، وقال له: إنك رجل خوارزمي ولا بد لك من موالاتة فينا وميل ن ووعده بالإحسان أن يصدقه فيما يسأله وأعطاه جوهرة نفيسة دليل وفائه بما وعد وشرط عليه أن يكون عينا له على جنكيز خان، فأجابه إلى ما سئل، رغبة ورهبة، ثم قال: أصدقني فيما يقول جنكيز خان إنه ملك الصين، واستولى على مدينة طمغاج^(٥). أصادق فيما يقول، ام كاذب؟ فقال: بل صادق. ومثل هذا الأمر العظيم ليس بخفى حاله، وعن قريب يتحقق السلطان من ذلك. فقال السلطان: أنت تعرف ممالكي وعساكري وكثرتها فمن هذا اللعين حتى يخاطبني بالولد؟ وما مقدار ما معه من العساكر؟ فلما شاهد محمود الخوارزمي آثار الغيظ، وتبدل لطف الكلام بالخصام، أعرض عن النصح ومال إلى الاسترحام، وقال: ليس عسكريه بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش، إلا كفارس في خيل، ثم أجاب السلطان بالقبول على المهادنة مع جنكيز خان، وأعاد الرسل إلى بلاد جنكيز خان يحملون الرد بقبول الاتفاق فسر جنكيز خان بذلك^(٦).

= ص ٥٢٨، فأراب هذه تقع وراء نهر سيحون في تخوم بلاد الترك. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٣، ج ٦، ص ٤٠٦، راجع دائرة المعارف الإسلامية، مج ٩، نشر دار الشعب، القاهرة، بدون، ص ٥٥.

(١) العريني: المغول، ص ١١٩، ثروت عكاشة: إعصار من الشرق (جنكيز خان)، الطبعة، الخامسة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٦٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل راجع نص الرسالة النسوي: المصدر السابق، ص ٨٣، ٨٤، الجويني: المصدر السابق، ص ١٧١، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥٥٣، العريني: المغول، ص ١١٩، ١٢٠، ثروت عكاشة: إعصار من الشرق، ص ١٦٠.

(٣) النسوي: المصدر السابق، ص ٨٣، فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، ج ١، ص ١٠١.

(٤) النسوي: المصدر السابق، / ص ٨٣ - ٨٥، الجويني: المصدر السابق، ص ١٧١، ١٧٢، عفاف صبره. التاريخ السياسي، ص ١٦٣، ١٦٤.

(٥) طمغاج: هي أول بلاد الخطأ التي كانت تفصل بن أملاك المغول في الشرق وأملاك الدولة الدولة الخوارزمية في الغرب، وكان صاحبها مسلم يقال له: محمود لوجا أصله من خوارزم، وكطان يحمل الأموال للمغول، والحريير في بلادهم كثير، ويقال أن عندهم معدن الذهب والفضة بكثرة أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٥٠٦.

(٦) النسوي: سيرة جلال الدين، ص ٨٣ - ٨٥، فؤاد عبد المعطي الصياد، المصدر السابق، ص ١٠٠،

استمرت المهادنة والمسالمة بين جنكيز خان والسلطان محمد خوارزمشاه إلى أن وصل من بلاد المغول أربعة تجار إلى مدينة أترار، هم عمر خواجه الأترارى، والحمال المراغى^(١)، وفخر الدين الدتركى البخارى، وأمين الدين الهروى^(٢).

وكان هؤلاء التجار الأربعة بصحبة جمع غفير من رسل جنكيز خان (ما بين ٤٠٠ و٥٠٠)، ومعهم الكثير من البضائع النفيسة من ذهب وفضة وحرير وأقمشة ومسك وأحجار كريمة، وادخلوا مدينة أترار، أولى مدن الدولة الخوارزمية^(٣). وكان أمير أترار هو "ينال خان"^(٤) وهو خال السلطان علاء الدين محمد، وكان ينوب عنه على بلاد ما وراء النهر ومعه عشرون ألف فارس^(٥) " فشرفت نفسه إلى أموال التجار وكاتب السلطان يقول: أن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى اترار فى زى تجار، ولبسوا بتجار بل أصحاب أخبار - جواسيس - يكشفون منها ما ليس من وظائفهم، إذا خلوا إلى واحد من العوام يهددونه ويقولون: إنكم فى غفلة مما ورائكم، وسيأتىكم مالا قبل لكم به . وأمثال ذلك حتى أذن له السلطان فى الاحتياط عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه . ولكنه قبض عليهم، وخفى بعد ذلك أثرهم وانقطع خبرهم، وتفرد "ينال خان" بتلك الأموال العدة، والأمتعة المنضدة، مكيدة منه وغدرا، وكان عاقبة أمره خسرا^(٦).

وهكذا نرى أن السلطان وفقا لما أورده النسوى لم يأمر بقتلهم، بل أمر نائبه بالبقاء عليهم إلى أن يرى فيهم رأيه .

ويرى ابن الأثير^(٧): أن ينال خان " حاكم أترار، قد بعث إلى خوارزمشاه بعلمه

(١) المراغى: نسبة إلى مدينة مراغة، مدينة مشهورة عظيمة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان، ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٤، ج ٨، ص ٢٣٨، ومراغة مدينة حسنة كثيرة الخصب والفواكه لها بساتين وزراعات وغللات وخيراتها شاملة الإدريسي: نزهة المشتاق، مج ٢، ص ٤٧١.

(٢) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٨٥، بارتولد: تركسان، ص ٥٦٨، الهروى: نسبة إلى مدينة هراة: بالفتح، مدينة عظيمة مشهورة من أمهات خراسان، وفيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة، دخلها المغول فخربوها فى سنة ٦١٨هـ، ١١٢١م، وياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٨، ص ٤١٧.

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦٤.

(٤) ينال: لقب عسكري، حيث كان الغز والأترك عادة يطلقون أسماء اليونان الجميلة أو القوية على أشخاص قوادهم، وهذه الأسماء التى اشتهر بها قواد السلاجقة والخوارزميين مثل سوباشى، ألقابا وليست أعلاما فامبرى: تاريخ بخارى، حاشية ١، ص ٢٢٨.

(٥) السيوطى: / تاريخ الخلفاء، ص ٥٥٣.

(٦) النسوى: المصدر السابق، ص ٨٥، ٨٦، عطاملك الجوينى: جهان كشا، ص ١٧٤.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ٤٠١، ابن واصل: جمال الدين محمد الدين ابن سالم، ت ٦٩٧هـ، ١٢٩٧م، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، حقيقه، وضع حواشيه د. /، حسين محمد ربيع، راجعة وقدم له د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، ٥ أخبار، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢، ج ٤، ص ٣٨، فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٥٨.

بوصولهم، ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزمشاه يأمر، بقتلهم، وأخذ ما معهم من الأموال، وإنفاذه إليه، فقتلهم وسير ما معهم، وكان شيئاً كثيراً، فلما وصل إلى خوارزمشاه فلاقه على تجار بخارى وسمرقند، وأخذ ثمنه منهم.

ولقد ترك ما حدث لهؤلاء التجار آثاره السيئة على نفسية جنكيز خان، فمعظم ذلك عنده، وتأثر منه وهجره النوم، وصار يحدث في نفسه ويفتكر فيما يفعله، وقيل أنه صعد إلى رأس تل عال وكشف رأسه وتضرع إلى الباري تعالى طالبا نصره على من باداه بالظلم وبقي هناك ثلاثة أيام بلياليها صائماً^(١). وقرر أن يرسل وفداً إلى السلطان محمد خوارزم شاه على رأسه رجل يدعى "كفرج بغرا"، وكان أبوه من أمراء السلطان تكس والد السلطان محمد، مصحوباً بشخصين من المغول ومعهم رسالة فيها "أنك قد أعطيت خط يدك بالأمان للتجار ولا تتعرض إلى أحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح ومن سلطان الإسلام أقبح فإن كنت تزعم أن الذي أرتكبه "ينال خان" كان من غير أمر صدر منك، فسلمه إلى، لأجزيه على ما فعل، حقنا للدماء، وتسكيناً للدهماء، وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح، وتتعضد معها عوالى الرماح"^(٢). إلا أن السلطان علاء الدين محمد لم يذعن لمطلبهم، لأن معظم جنود جيشة وقاداته العسكريين كانوا من أقرباء "ينال خان"، وكان السلطان نفسه أداة في أيديهم كما أن "تركان خاتون"^(٣) والدة السلطان كان لها من النفوذ في السلطة، يدعمها في ذلك قوة أتراك عشيرة القانقلى^(٤) ما

(١) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٠.

(٢) النسوي: سيرة جلال الدين، ص ٨٧، الجويني: جهان كشا، ص ١٦٧.

(٣) ترکان خاتون: لفظ معناه السيدة. الفروسي: أبو القاسم، ت ٤١٦هـ، ١٠٢٥م، الشاهنامه، ترجمة د/ عبد الوهاب عزام، ط ٢، / نشر دار سعاد الصباح، ج ٢، ص ٣٤١.

ويستعمل في الغالب في معاني التبجيل والاحترام: النسوي: سيرة جلال الدين، حاشية ١، ص ٤٤. وتركان خاتون، زوجة علاء الدين تكش خوارزمشاه، ت ٥٩٦هـ، ١١٩٩م، وتنسب إلى قبيلة قانقلى (كانكلى)، التي تسكن في شمالي إقليم خوارزم، وقد أنجبت له علاء الدين محمد، وكان لهذه المصاهرة أثر كبير في سياسة الدولة الخوارزمية الداخلية بوجه خاص في عهد علاء الدين محمد، إذ نزح عدد كبير من كبار رجال هذه القبيلة إلى أراضي الدولة الخوارزمية، وتكونت منهم عصابة كبيرة في جوف الدولة، أخذت تحكم بالترج في وظائف الدولة ومواردها وتناهض قوة السلطان نفسه. النسوي: سيرة لسلطان جلال الدين، حاشية ٣، ص ٦٢.

(٤) القانقلى: شعب يذكر دائماً في المصادر التاريخية مع شعب القبجاق، ولكن محمود الكشغري يكر كلمه قانقلى على أنها اسم لأحد عظماء القبجاق لا على أنها اسم شعب، ويقول أيضاً أن كلمة قانقلى معناها (عربة).

بارتولد: تاريخ الترك، طبعة الهيئة المصرية العامة، للكتاب، ص ١٣١.

كانت لتدع خوارزمشاه يغامر بتسليمه، ولم يوافق على طلب جنكيز خان، وأمر بقتل رسله جميعاً^(١) فيالها من قتلة هدرت دماء الإسلام، وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم الحرام^(٢) .

وقد علق الجويني^(٣) على مقتل هؤلاء التجار بقوله " أن كل قطرة من دمائهم، قد كفر عنه المسلمون بسيل من الدماء كما كلفتهم كل شعرة من رؤسهم مائة ألف من أرواحهم، ودفعوا في مقابل كل دينار ألف قنطار" .

وتعتبر هذه المذبحة هي السبب الجوهري في الغزو المغولي على البلاد الإسلامية حيث تعتبر مذبحة أترار هي بداية الصراع الذي جر الوبال على البلاد الإسلامية^(٤) .

قبل البدء في الحديث عن الغزو المغولي لإقليم خوارزم، لابد لنا أن نتبع الاستعدادات التي تمت من كلا الطرفين المغولي والخوارزمي، قبل الوصول إلى خوارزم .

بدأ جنكيز خان ترتيب جيوشه وفق خطة محكمة، وهي توجيه ضربة للخوارزميين عبر أربع جهات، لذلك قام بتقسيم جيوشه إلى أربعة جيوش كل منها موجه إلى منطقة بعينها .

الجيش الأول بقيادة ابنه " جغتاي وأوكتاي " وهذا الجيش قوامه تومان (والتومان بالمغولية عشرة آلاف) ومكلفة بفتح أترار^(٥) .

والجيش الثاني بقيادة ابنه الأكبر جوجي، وكلف بفتح مدن نهر سبسون (خاصة مدينة جند)^(٦) .

والثالث وهو عبارة عن فرقة صغيرة قوامها خمسة آلاف كلفت بفتح مدينتي خجند^(٧) وبناتك^(٨)، والاستيلاء عليهما^(٩) .

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص، ٦٤ باتولد: تركستان، ص ٥٧٠ .

(٢) النسوي: المصدر السابق، ص ٨٨ .

(٣) جهان كشا، ص ١٧٩، فامبري: تاريخ بخارى، ١٥٨ : ١٥٩ .

(٤) عبد السلام فهمي: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ٥٥ .

(٥) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦٦ .

(٦) بارتولد: تركستان، ص ٥٨٠ .

(٧) خجند: بضم أوله وفتح ثانية ونون، ثم دال مهملة، وهي بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ

سيحون. ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج ٢، ج ٣، ص ٢١٦ .

(٨) بناتك: بالفتح: بالفتح وكسر الكاف وآخره تاء وفوقها نقطتان، مدينة بما وراء النهر، ياقوت الحموي:

معجم البلدان، مج ١، ج ٢، ص ٣٩١ .

(٩) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٥٣ .

والرابع ويتكون من أغلب المغول، وعلى رأسه جنكيز خان نفسه، كما سار معه ابنه تولوى، قاصدا وسط أقاليم ما وراء النهر، وخاصة بخارى^(١).

أما عن السلطان علاء الدين محمد فقد بدأ فى إعداد جيشه فبدأ أولا ببناء سور على مدينة سمرقند يبلغ اثنى عشر فرسخا وشحنه بالرجال المقاتلين، وفرق عماله وجباته فى جميع البلاد، وأمرهم بجمع الخراج عن عام ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م، من اجل بناء سور سمرقند، وبعث بجباه آخرين إلى جميع الممالك الإسلامية وأمرهم بجباية خراج ثالث فى سنتهم تلك، على أن يستخدم بها رجال رماه مكمله العدة، ويكون عدد رجال كل جهة على قدر ما يحصل منها من المال قليلا كان أو كثيرا، يكون لكل واحد منهم جمل يركبه ويحمل سلاحه وزاده، فاستخدموهم أسرع ما يكون^(٢).

كما تشاور السلطان علاء الدين محمد مع الإمام شهاب الدين الخيوقى الذى كان مقربا عند السلطان فأشار عليه بأن الصلاح فى أن يكتب إلى عماله على أطراف مملكته وأن يحشد الجند للدفاع عن ديار الإسلام، وأن يمنع المغول من المرور بصفاف نهر سيحون، لكن أمراء الجيش لم يوافقوا على هذا رأى، وقالوا أن الاصلح هو السماح بتقدم المغول إلى ما وراء النهر وبلوغ الجبال والمعابر الوعرة، التى لا يعرفون طرقها ومسالكها، فنقض ونجهز عليهم^(٣)، وقام بتوزيع جيشه وأمرائه على مدن ما وراء النهر خاليا من عسكر^(٤).

هذه هى الاستعدادات التى استعد بها كلا الطرفين، ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، فكانت الغلبة للمغول، وذلك للتخطيط الدقيق الذى وضعه جنكيز خان لحصر العالم الإسلامى من الجهات الأربعة.

كان هجوم المغول بقيادة الجيش الأول على مدينة أترار، مفتاح أقاليم ما وراء النهر^(٥)، ودان القتال عليها ليلا ونهارا، حتى أستولى عليها المغول، وأحضر ينال خان بين يدى جنكيز خان، وأمر بسبك الفضة وقلبها على أذنيه وعينيه، فقتل تعذيبا^(٦).

(١) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٦٥.

(٢) النسوى: سيرة السلطان جلال الدين، ص ٨٩.

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦٦.

(٤) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٩٠، ٩١.

(٥) عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران، ص ٥٩.

(٦) النسوى: المصدر السابق، ص ٩١.

وفى عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م، فتح بخارى وتم تخلايها على يد المغول^(١)، ثم اتجه جنكيز خان صوب سمرقند، وتم بها ما تم فى بخارى وذلك سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م^(٢).

ثم توالى الفتوحات المغولية فتم فتح بناكت وخجند وغيرها من المدن الإسلامية فى أقاليم ما وراء النهر^(٣) حتى جاء الدور على إقليم خوارزم .

ذكرنا هذه المقدمة عن استعدادات الجانبين حتى يتبين لنا كيف تم الغزو المغولى ومن ثم الاستيلاء على المدن الإسلامية بهذه السرعة الرهيبة . على أن ما يهمنى فى هذا الحديث هو الغزو المغولى وأثره على الحياة الفكرية فى إقليم خوارزم .

ثالثا: الغزو المغولى لإقليم خوارزم:

بعد أن قضى جنكيز خان على السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه^(٤)، خلفه ابنه جلال الدين، وكان هدف جنكيز خان بعد القضاء على السلطان علاء الدين هو الاستيلاء على العاصمة الخوارزمية "الجرجانية"، والقبض على ترکان خاتون أم السلطان محمد وسائر الأمراء الخوارزميين^(٥).

وعندما علمت ترکان خاتون بوفاة ابنها السلطان علاء الدين محمد، هربت من خوارزم، واستصحت ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه وخرجت عن خوارزم، وأمرت بقتل من كان بخوارزم من الملوك الأسارى^(٦).

وفى تلك الأثناء اختار جنكيز خان ابنه جغتاي وأوكتاي للاستيلاء على إقليم خوارزم وجهازها بجيش كثيف كحوادث الزمان، فامتألت بهم الجبال والوديان، وامر جوجى أن يمدهم من ناحية أخرى بجيش آخر^(٧).

أما إقليم خوارزم نفسه، فإنه بعد مغادرة "ترکان خاتون" وحاشيتها له فقد خلا

(١) ابن الأثير: الكامل / مج ١٠، ص ٤٠٣، ٤٠٤.

(٢) ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص ٢٣١، المقرئى: السلوك:، ج ١، قسم ١، ص ٢٠٥.

(٣) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٥٥، ٣٥٦.

(٤) لمزيد من التفاصيل ارجع الفصل الأول، ٤٩، ٤٨.

(٥) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٥٩، فؤاد عبد المعطى الصياد، المغول فى التاريخ، ج ١، ص ١٢٣.

(٦) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٩٦، بارتولد: تركستان، ص ٦٥.

(٧) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣٠١.

من الحكام الخوارزميين، وأى نوع من الإدارة، ويات ينتظر مصيره المحتوم على أيدي المغول، خصوصا وأن ترکان خاتون فاتها أن تعين حاكما على الإقليم^(١). يقوم بضبط الأمور.

أصبح إقليم خوارزم خالي من السلاطين، وكان به من كبار قادة الجيش رجل يدعى خمار التركي وتخلف هناك أيضا عدد من أعيان الأمراء^(٢)، منهم رجل يدعى "على كوه دروغان"، تولى أمر خوارزم، وسمى كواه دروغان لعظم أكاذيبه (ومعناه أكاذيب كالجبال)، وكان سيئ التدبير، وأستمر الحال على ذلك إلى أن رجع جلال الدين منكبرتي وأخويه أزلاغ شاه وأق شاه بعد وفاة السلطان علاء الدين محمد^(٣).

وتم إعلان ولاية عهد جلال الدين وخلع أوزلاغ شاه، ولم يزعن أمراء الترك لهذا الأمر، وأعلنوا معارضتهم لجلال الدين وصمموا على سجنه أو قتله فخرج من خوارزم ومعه ثلاثمائة فارس، وأنزل هزيمة ببعض جنود المغول^(٤)، وفر بعضها إلى خراسان، وبع دثلاثة أيام من فرار جلال الدين، رحل كل من أوزلاغ شاه وأوق شاه عن جرجانية خوارزم، وأسرع إلى خراسان^(٥).

أما أوزلاغ شاه وأق شاه، فقد قتلها المغول، أثناء عودتهما من خوارزم بعد جلال الدين، واستشهد من معهما، وعاد المغول برأسيهما^(٦).

ذكرنا أن "ترکان خاتون" تركت خوارزم، كما تركه جلال الدين وأخواه أزلاغ شاه وأوق شاه الذان أستشهدا .

وكان بخوارزم من العظماء وأفاضل الدهر ما لا يعد ولا يحصى، وكان عدد السكان به يزيد عن حبات الرمال والحصى عددا، وعينوا خمار التركي سيدا عليهم وهو أحد قواد الجيش ومن أقرباء ترکان خاتون^(٧).

ومن أجل حصار إقليم كبير كخوارزم، اضطر جنكيز خان إلى إرسال قوات أكبر

(١) عبد السلام فهمي: الدلة المغولية في إيران، ص ٦٥.

(٢) عطا ملك الجويني: جهان كشا، ص ٣٠١.

(٣) النسوي: سيرة جلال الدين، ص ١٢١، بارتولد: تركستان، ص ٦٠٩.

(٤) راجع في نفس الفصل، جلال الدين والمغول، ص ١٧٤.

(٥) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٠، عبد السلام فهمي: المصدر السابق، ص ٦٦.

(٦) النسوي: سيرة جلال الدين، ص ١٣٠.

(٧) عطا ملك الجويني: جهان كشا، ص ٣٠١.

مما أرسل إلى المدن الأخرى. فتقدم نحو خوارزم في (ذى القعدة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م)، من ناحية الجنوب الشرقي قوات جغتاي وأوكتاي يصحبهما ألوف الجناح الأيمن بطريق بخارى، هذا بينما تقدمت من مدينة جند قوات جوجى من ناحية الشمال الشرقي (١).

وبعد أن أكتمل حصار العاصمة الجرجانية، أرسل جوجى رسالة لأهل المدينة يعدهم بالأمان إن استسلموا، إلا أن أهالى الجرجانية لم ينصاعوا، على الرغم من ان السلطان علاء الدين محمد كان قد كتب يدعوهم إلى مسالمة المغول والرفق بهم (٢). وكان أهل البلد معروفون بالشجاعة، فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس، ودام الحصار خمسة أشهر (٣)، ونظرا لأنه لم يكن بخوارزم حجارة فكان جندى المغول يقتطعون كتلا من أشجار التوت التى تكثر فى هذه النواحي ويضعونها فى الماء حتى تتصلب وتقسو ويقذفون بها المدينة كالحجارة، وكعادتهم وكما هو مألوف لديهم فقد شغلوا الأهالى يوما بعد آخر بالوعد والوعيد والإيناس والتهديد وكانوا يتبادلون قذف بعض بالسهام أحيانا (٤). فكلف المغول إلى الشباب من المدن المفتوحة، بردم خندق مياه المدينة فى عشرة أيام وتدمير قلاع المدينة، وأدخلت هذه العمليات الرعب فى قلوب خمار التركى، فخرج من المدينة وأعلن استسلامه (٥).

وكان لهذه الخيانة تأثير كبير فى عضد أهالى الجرجانية، ومع ذلك لم فإنهم لم يستسلموا للمغول (٦). وشنوا هجوما على ثلاثة آلاف من الجند كانوا يرمون جسرا فى المدينة وقتلوهم وقتلوهم عن آخرهم، وبعث هذا العمل روحا جديدة فى نفوس أهالى الجرجانية فزادوا جلدا وصبرا على القتال (٧). فأرسل المغول إلى ملكهم جنكيز خان يطلبون المد، فأمدهم بخلق كثير فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفا متتابعا، فملكوا طرفا منه، فأجتمع أهل البلد وقتلوهم فى طرف الموضع الذى ملكوه، فلم يقدرروا على إزاحتهم عنه ولم يزالوا يقاتلوهم، والمغول يملكون منهم محلة بعد محلة، وكلما ملكوا

(١) بارتولد: تركستان، ص ٦١١، حافظ أحمد حمدى، الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٦٣، ١٦٤، العرينى: المغول، ص ١٣١.

(٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٢١.

(٤) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣٠٢، ٣٠٣.

(٥) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٢.

(٦) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨١، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٢، ٣٦٣.

(٧) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

محلة قاتلهم المسلمون فى المحلة التى تليهم، فكان الرجال والنساء والصبيان، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا الإقليم جميعه، وقتلوا كل من فيه، ونهبوا كل ما فيه^(١)، ثم فتحوا الجسر الذى يمنع ماء حيحون عن البلد، فدخله الماء فغرق الإقليم جميعه، وتهدمت الأبنية^(٢).

وبقى موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة، فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله، وأما أهل خوارزم فمن أختفى من المغول أغرقه الماء أو قتله الهدم، فأصبح خرابا^(٣).

نرى من كلام ابن الأثر أن المغول قتلوا جميع أهالى خوارزم، على أن المؤرخ الفارسى عباس إقبال يرى أن المغول تمكنوا من تسوية المدينة بالأرض إلا ثلاث محلات اعتصم بها من بقى من أهل خوارزم العاجزين من السيف، وأرسل الفقيه على الدين خياطى إلى جوجى، وطلب الأمان لهم، ولم يقبل جوجى هذا المطلب^(٤). وأصدر أوامره بترحيل كل من بقى من الأهالى إلى الصحراء، واشتغل الجيش بالنهب والسلب والإغارة وخربوا ما بقى من البيوت والمحلات^(٥).

هكذا انتهى الغزو المغولى لإقليم خوارزم بالتدمير والخراب، على أن أثر هذا الغزو المغولى كان أعظم وأفظع، وسوف نتحدث عن هذا الأثر، بعد أن نتحدث عن دور جلال الدين منكبرى وحروبه ضد المغول حتى لقي حتفه ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م.

رابعا: جلال الدين منكبرى وجهاده ضد المغول (٦١٧ - ٦٢٨هـ / ١٢٢٠ - ١٢٣٠م):

عندما خرج جلال الدين من خوارزم كان معه ثلاثمائة فارس واستطاع التصدى لبعض جنود المغول وكان عددهم سبعمائة مقاتل، حتى وصل إلى خراسان . وعلى الرغم من هذا النصر الذى حققه جلال الدين، إلا انه لم يتمكن من حشد قوات كافية فى خراسان، لذا فبعد إقامة قصيرة فى العاصمة نيسابور، مضى إلى مدينة

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٢١ : ٤٢٢، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٢٢، العرينى: المغول، ص ١٣١.

(٤) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨١، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٣.

(٥) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣٠٤.

زوزن بولاية قهستان^(١)، ومنها إلى بست^(٢)، منها إلى هراة^(٣)، ثم إلى غزنة، فوصلها في سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م^(٤)، وكان معه من سلم من عسكر أبيه وكانوا ستين ألف مقاتل^(٥).

ولما فرغ المغول من خراسان، جهز جنكيز خان جيشا كثيفا قوامه اثني عشر ألفا، وسيره إلى غزنة^(٦)، فخرج إليهم جلال الدين إلى موضع يقال له "بلق"^(٧) فالتقوا هناك واقتتلوا قتالا شديدا، وبقوا كذلك ثلاثة أيام، ثم أنزل الله نصره إلى المسلمين، فانهزم المغول، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان، فلما انهزم المغزل، أرسل جلال الدين رسولا إلى جنكيز خان قول له "فى أى موضع تريد أن يكون الحلاب حتى نأتى إليه^(٨)؟" فجهز جنكيز خان عسكرا أكثر من أول مع بعض أولاده ووصلوا إلى كابل^(٩)، وألتقى الجمعان، فانهزم المغول للمرة الثانية، وقتل المسلمون فيهم وغنموا شيئا كثيرا^(١٠)، فكان مع المغول من أسرى المسلمين خلق عظيم، فخلصوا من الأسر^(١١).

وساد الفرح مل البلاد نتيجة لهذا النصر الذى حققه المسلمون. وبعد أن بلغت أنباء هذا النصر خراسان وجنوب ما وراء النهر، ثار الأهالى على العديد من مدنها وقتلوا رؤساء الشرطة المغول فيها. وكان من أوائل نتائج هذا النصر أن فك المغول الذين كانوا يحاصرون قلعة ولخ بطخارستان الحصار ولاذوا بالفرار^(١٢).

-
- (١) راجع الفصل الأول، ص ٤٩ - ٥١.
- (٢) بست: بالضم، مدينة بين سجستان وغرنيين وهراة من أعمال كابل. ياقوت: البلدان، مج ١، ص ٣٢٨، ج ٢.
- (٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٥: ٨٦.
- (٤) فاكبرى: تاريخ بخارى، ص ١٧٨.
- (٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦١.
- (٦) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج ٢، ص ١٢٨.
- (٧) بلق: بالفتح، ثم السكون، وقاف: ناحية بغزنة من أرض زابلستان. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ١، ج ٢، ص ٣٨٥، وذكر هذا الموضوع بيروان السنوى: سيرة جلال الدين، ص ١٥٤، بروان، عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٩٥.
- (٨) ابن الأثير: الكامل، ج ١، ص ٤٢٢.
- (٩) كابل: ولاية كبيرة بين الهند وغزته، ياقوت: البلدان، مج ٤، ج ٧، ص ١١١.
- (١٠) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ١٣٨.
- (١١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٢.
- (١٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٩٦، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٧٢، بارتولد: تركستان، ص ٦٢٢.

ثم جرت بين المسلمين فتنة لأجل قسمة الغنائم، وسبب ذلك أن أمير منهم يقال له: سيف الدين بغراق - أصله من الترك، وكان شجاعا ذا رأى فى الحرب ومكيدة، واصطلى الحرب مع المغول بنفسه، وهو الذى هزم المغول فى الحقيقة^(١)، ووقع بينه وبين أمير آخر يقال له ملك خان بينه وبين جلال الدين نسب، فاختلف هذان الأميران فى الغنيمة، فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق^(٢)، فقال بغراق "أنا أهزم الكفار ويقتل أخى لأجل هذا السحت"^(٣)، فغضب وفارق العسكر وسار الهند، فتبعه من العسكر ثلاثون ألفا كلهم يريدونه^(٤)، فاستعطفه جلال الدين بكل الطرق، وسار بنفسه إليه، وذكره الجهاد، وخوفه من الله تعالى، وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقا، فانكسر المسلمون وضعفوا^(٥). فضعف بذلك جلال الدين، ثم وصل جنكيز خان بنفسه فى جيوشه، فلم يكن لجلال الدين به قدرة بعد مسير بغراق جيشه، فقصد جلال الدين الهند، وتبعه جنكيز خان حتى أدركه على نهر السند^(٦)، فألتقى الجيشان فى شوال من سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م، وحمل على القلب فمزقهم فولى جنكيز خان منهزما، لكن كان له كمين عشرة آلاف فارس فخرجوا على ميمنة جلال الدين وعليها أمير ملك، فانكسرت وأسر ابن جلال الدين وتبدد نظامه^(٧).

ولما عاد جلال الدين إلى حافة ماء السند كسيرا، رأى والدته، وأم ولده وجماعة من حرمة يصحن بأعلى صوتهن: بالله عليك أقتلنا وخلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن، وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب^(٨). وأصدر جنكيز خان أمرا بالقبض على جلال الدين حيا ولذلك لم يبالغ الجيش المغولى بالحرب والسهم امتثالا لأمر جنكيز خان إلا أن جلال الدين، انسحب من مواجهتهم، واحضروا له جوادا جديدا، فلما امتطى صهوته، هاجم مرة ثانية، ثم ارتد سريعا، وألقى بنفسه فى النهر كالبرق الخاطف^(٩)، حتى وصل إلى الساحل، ولما شاهد ذلك جنكيز خان وضع يده على فمه

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ٤٢٢.

(٢) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٢٨.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٤٢٢.

(٤) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ١٣٨.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق، ص ٤٢٣، ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٢.

(٦) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٢٨.

(٧) الذهبى: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٢٦.

(٨) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١٥٩.

(٩) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣١٠.

متعجبا والتفت إلى ولديه، جغتاي وأوكتاي - وقال لهما "من أب مثل هذا الابن ينبغي أن يولد": إذا نجا من هذه الواقعة فوقائع كثيرة تجرى على يديه، ولأن جلال الدين ألقى جميع ما كان معه من النفائس وانية الذهب والفضة في النهر، أمر جنكيز خان الغواصين فاخرجوا منها ما أمكن^(١)، وعبر جلال الدين النهر إلى جهة الهند، وعاد جنكيز خان فاستولى على غزنة قتلا ونهباً^(٢).

كان في هذه الفترة غياث الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش، أخو جلال الدين هو صاحب بلاد الجبل والرى وأصبهان وغير ذلك^(٣)، وعندما توجه جلال الدين إلى بلاد الهند ملك غياث الدين بلاد كرمان، وكان مع غياث الدين في خيمته خاله إيغان طايسی، وهو اكبر أمير معه، لا يصدر غياث الدين إلا عن رؤية والحكم إليه في جميع المملكة^(٤)، فلما عظم شأنه حدث نفسه بالاستيلاء على الملك، وحسن له ذلك غيره وأطمعه فيه^(٥)، فأقتتل غياث الدين مع خاله إيغان طايسی ومن معه فانهزم إيغان طايسی، وأقام غياث الدين في بلاده مؤيدا منصوراً^(٦). وفي أول سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م، سار غياث الدين إلى مدينة شيزار، وهي كرسى مملكة فارس وأكبرها وأعظمها فملكها، وبقي غياث الدين بها، واستولى على أكثر البلاد، وأقام غياث الدين بشيزار وزاد إقامة وعزما على ذلك لما سمع أن المغول قد عادوا إلى الرى والبلاد التركية وخربوها^(٧).

وفي نفس السنة خرج جلال الدين من بلاد الهند حتى وصل إلى كرمان في أربعة آلاف فارس فيهم ركاب أبقار وحمير^(٨)، وحين سمع غياث الدين نبأ مجيء أخيه، خرج ومعه ثلاثون ألف فارس لصدّه، إلا أن جلال الدين منع أخاه من الحرب بإرسال سفير إليه، فعاد غياث الدين إلى الرى وأنصاع معظم قواد الجيش لأمر جلال الدين^(٩)، ووصل في سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م إلى أصفهان فملكها، واستولى على عراق العجم، ثم

(١) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص ٢٢٦.

(٢) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ٢، ص ١٣٩.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ١٠، ص ٤٣٦.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ١٣٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل، مج ١، ص ٤٣٦.

(٦) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٣٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٤٠.

(٨) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ١٤٧.

(٩) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٤٢.

سار إلى بلاد فارس فاستعاد ما أخذه أخوه غياث الدين، ثم سار إلى خوزستان، وكانت بيد الخليفة الناصر، فوصل مدينة تستر فحاصرها، وتفرق عسكر جلال الدين يذهبون حتى وصلوا إلى بادرايا وغيرها من أعمال بغداد^(١)، وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة، فسار إليهم وإلى البصرة وهويلتكنين من قبل الخليفة، فأوقع بهم وقتل منهم جماعة، ودام حصار جلال الدين لمدينة تستر شهرين ثم رحل عنهم بغتة^(٢)، فلما رحل جلال الدين لم يقدر على منعه فسار إلى أن وصل إلى بعقوبا، وهى قرية مشهورة بطرق خراسان، بينها وبين بغداد نحو سبعة فراسخ، فلما وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد، وأما عسكر جلال الدين فذهبوا البلاد وأهله^(٣). وسار من بعقوبا إلى دقوقا^(٤)، فبذل فيهم السيف، وعزم على أخذ بغداد^(٥)، فاخبتب الناس وانزعج الناصر لدين الله، وكان مريضا، فنصب المجانيق وحصنت الأسوار، وأنفق الناصر فى العساكر ألف دينار^(٦).

لما جرى على أهل دقوقا الخراب، خاف أهل البوازيج^(٧) من جلال الدين، وهى لبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فطلبوا الأمان من جلال الدين وسير إليهم من يحميهم، وذكر أن الشخص الذى سيره لحمايتهم هو أحد أولاد جنكيز خان ملب المغول، كان قد أسره جلال الدين فى بعض حروبه، ثم أكرمه فصار من أصحابه فحمى أهل البوازيج، وأقام جلال الدين مكانة إلى آخر ربيع الآخر من هذه السنة^(٨)، والرسل مترددة بينه وبين مظفر الدين صاحب إربل، فاصطلحوا فسار جلال الدين إلى آذربيجان فملكها^(٩).

- (١) ابن واصل: تاريخ الواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والسلطين، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٣١٩ تاريخ، ميكروفيلم ٤٩٧١٣، ورقة ٢٢٥.
- (٢) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٤٤، فاروق عمر: تاريخ إيران، بالاشتراك مع د. مرتضى حسن النقيب، بغداد، ١٩٨٩م، ص١٨٩.
- (٣) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص٤٤٤.
- (٤) دقوقا: بفتح أوله وضم ثانية وبعد الواو قاف أخرى وألف ممدودة ومقصورة. مدينة بين أربل وبغداد: ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج٢، ج٤، ص٣٠٣.
- (٥) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج٣، ج٥، ص٩٦.
- (٦) الذهبى: دول الإسلام، ج٢، ص١٣٠.
- (٧) البوازيج: بعد الزاى ياء ساكنة وجيم. بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة، يقال لها بوازيج الملك وهى من أعمال الموصل، ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج١، ج٢، ص٣٩٦.
- (٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص١٣٣.
- (٩) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص٤٤٥.

وفى نفس السنة توفى الخليفة الناصر لدين الله، وبويع ابنه الخليفة الظاهر بأمر الله^(١). وفى سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م، استولى جلال الدين منكبرتى على مدينة تفليس^(٢) وهى منى أحسن البلاد وأحصنها وأمنعها^(٣).

ففى نفس العام توفى الخليفة الظاهر وبويع لابنه الأكبر المنتصر بالله^(٤).

هذه محاولات جلال الدين منكبرتى للسيطرة على البلاد الإسلامية ولم الشمل وذلك للمواجهة المرتقبة بينه وبين المغول، وذلك فى محاولة منه لتثبيت البيت الخوارزمى وإعادة الهيبة والهيمنة للدولة الخوارزمية .

ففى سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م، توفى جنكيز خان^(٥). وكان قبل وفاته قد عاد إلى بلاده سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م، وترك أقاليم الدولة الخوارزمية خاوية على عروشها، وانشغل المغول عن البلاد الإسلامية بأمر أصبحت تهدد كياناتهم فى بلادهم الأصلية، لذلك نرى جنكيز خان فى الفترة الباقية من حياته، أى منذ عودته إلى بلاده حتى توفى سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م، يكرس جهوده لضرب القبائل الثائرة عليه^(٦). ويحاول إخضاع ما يستطيع إخضاعه من إمبراطورية سونج Sung فى النصف الجنوبى من بلاد الصين، غير أنه توفى قبل أن يرى ثمرة انتصار قواده هناك^(٧).

وفى نفس السنة التى توفى فيها جنكيز خان، خرجت طائفة عظيمة من المغول، عازمين على بلاد الإسلام، فسار إليهم جلال الدين وحاربهم، واشتد القتال بينهم، فأنهزم المغول، وتبعهم جلال الدين عدة أيام يقتل ويأسر، بينما هو كذلك، أقام بنواحي الرى خوفا من جمع آخر للمغول إذ آتاه الخبر بأن كثيرا منهم واصلون إليه، فأقام

(١) الذهبى: دول الإسلام، ج ٢، ص ٦٢٢.

(٢) تفليس: بفتح أوله ويكسر. بلد بأرمينية الأولى والبعض يقول بأران وهى قسبة ناحية جرجان قرب باب الأبواب وهى مدينة قديمة أزلية... وتفليس مدينة لا إسلام وراءها يجرى فى وسطها نهر يقال له "الكر" يصب فى البحر وعليها سور عظيم وبها حمامات شديدة الحر. ياقوت: معجم البلدان، مج ١، ج ٢، ص ٤٤٨.

(٣) ابن واصل: تاريخ الواصلين، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٥٣١٩، تاريخ، ميكروفيلم ٤٩٧١٣، ورقة ٢٣٧.

(٤) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٥٤٤.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٧، ج ١٣، ص ١٣٧ - ١٤١.

(٦) Lamp: Genghis - Khan, the Emperor, if, All Men, P. 192.

(٧) حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢٢١.

ينتظرهم^(١). وفي هذه السنة أيضا كان السلطان جلال الدين خوارزمشاه قد ملك بلاد أذربيجان وأران وبعض بلاد الكرج وعراق العجم وغيرهم^(٢).

وفي سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م، عاود المغول الخروج إلى بلاد الإسلام، وجرت بينهم وبين جلال الدين خوارزمشاه حروب كثيرة، ظفر المغول في أكثرها^(٣)، ثم بعد ذلك هزمهم هزيمة منكرة، وقتل منهم خلقا وأما لا يحصون^(٤). وقد ذكر في حديث هذه الحروب أن المغول الذين قصدوا بلاد الإسلام في هذه السنة، لم يكن قصدهم لها بأمر الخان^(٥)، وإنما هؤلاء المغول قد سخط ملكهم الخان على مقدمهم، وأبعده عنه وأخرجه من بلاده، فقصد بلاد خراسان، فرآها خرابا، فقصدوا الري ليتغلب عليها وعلى غيرها من عراق العجم، فلقية جلال الدين خوارزمشاه، فاقتتلوا قتالا شديدا، فانهزم جلال الدين^(٦).

ثم عاود القتال، فانهزم ثانيا^(٧)، وقصد أصفهان واقام بينها وبين الري، وجمع عساكره، ومن طاعته^(٨)، وحشد جلال الدين قواته لقتال المغول، فأسند قيادة ميمنة الجيش لأخيه غياث الدين وأتخذ هو موقع القلب. ولكن لم تكد الحرب تبدأ حتى أخذ أخوه غياث الدين وأحد أمراء السلطان ويدعى "جهان بهلوان إيلجى" عددا من جيشه وولوا الأدبار^(٩) وقصدوا جهة ساروا إليها، فما رآهم المغول قد فارقوا المعسكر ظنوا أنهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين، فانهزم المغول لهذا الظن، وتبعهم صاحب بلاد فارس، وأما جلال الدين، فإنه لما رأى مفارقة أخيه إياه، ظن أن المغول رجعوا خديعة ليستدرجوه، فعاد منهزما^(١٠)، ولم يرد دخول أصفهان لئلا يحصره، فمضى إلى سُميرم^(١١)، وأما صاحب فارس فلما أبعد في أثر المغول، ولم ير

(١) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٧٣.

(٢) ابن واصل: المخطوطة السابقة، ورقة ٢٤٥.

(٣) ابن الوردي: تاريخ، ج ٢، ١٤٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٧، ج ١٣، ص ١٤٢.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٣٢.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ١٠، ص ٤٧٦، ٤٧٧.

(٧) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٣٨.

(٨) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٣٢.

(٩) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٥٠.

(١٠) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٧٧.

(١١) سميرم: بلدة بين أصفهان وشيراز في نصف الطريق، وهي آخر حدود أصفهان: ياقوت الحموي:

معجم البلدان، مج ٣، ج ٥، ص ٧٤.

جلال الدين خاف المغول فعاد عنهم، وأما المغول، فلما لم يروا أحداً في آثارهم عادوا إلى أصفهان، فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم، فوصلوا إلى أصفهان، فحاصروها^(١). وعلق الذهبي على ذلك فيقول "فانهزم الجمعان من غير قتال"^(٢).

وخفى خبر السلطان عن أهل أصفهان ثمانية أيام فلم يدر أحد، فينتظر عوده، أم لا فينتظر الأمر ممن يقوم به بعده، وكان المصاف في ٢٢ رمضان ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م، فلما خرج الناس يوم العيد إلى المصلى، وصل السلطان جلال الدين وحضر الصلاة^(٣)، ففرحوا به، ووعده بالنصر والخروج إلى عدوه، فكان شجاعة عظيمة، فسار إليهم وأجتمع بهم، وخرج أهل أصفهان معه^(٤)، فقاتلو المغول، فانهزم المغول أقبح هزيمة، وساق جلال الدين وراءهم، إلى الرى قتلاً وأسرا^(٥)، فلما بعدوا عن الرى، أقام بها، وجاء إليه رسول ابن جنكيز خان يقول له "أن هؤلاء ليسوا من أصحابنا، وإنما نحن أبعدناهم عنا" فلما أمن جلال الدين من جهة ابن جنكيز خان عاد إلى بلاد أذربيجان^(٦).

وفي أوائل شوال من سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م، حاصر جلال الدين مدينة خلط^(٧)، وقاتله أهل البلد قتالاً شديداً، أسرفوا في شتمه على الأسوار^(٨).

وفي ٢٨ جمادى الأولى سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م^(٩)، فتح له باب المدينة بعض الأمراء فدخل جلال الدين بعسكره وملكها، ووضع السيف في أهلها، فقتل كل من

(١) ابن واصل: مفرج الكرب، ص ٢٣٢.

(٢) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٣٨.

(٣) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص ٢٣٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٧٧.

(٥) الذهبي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٨.

(٦) ابن واصل: المصدر السابق، ص ٢٣٣.

(٧) خلط: بكسر أوله وآخره، بلد عامرة مشهورة ذات خيرات واسعة وثمار يانعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة، ويردها في الشتاء يضرب المثل ولها بحيرة ليس لها في الدنيا نظير يجلب منها السمك المعروف بالطريخ إلى سائر البلاد، ومن عجائب الدنيا بحيرة خلط فإنها عشرة أشهر لا يكون فيها ضفدع ولا سرطان ولا سمكة ثم يظهر السمك مدة شهرين في كل سنة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ٢، ج ٣، ص ٢٤١.

(٨) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٨٤، الذهبي: دول الإسلام، ج ٢، ص ١٣٩.

(٩) ذكر النسوي أن السلطان جلال الدين ملك خلط في أواخر سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م. انظر النسوي: سيرة جلال الدين، ص ٣٢٠ - ٣٢٤.

وجد بالبلد، ومن سلم هرب من البلاد، وسبوا الحريم، واسترقوا الأولاد، وباعوا الجميع، فتمزقوا كل ممزق، وتفرقوا في البلاد، ونهبوا الأموال، وجرى على أهلها مالم يسمع بمثله^(١).

بعد سقوط خلاط، وكانت للملك الأشرف موسى^(٢)، فعرض إقامة حلف قوى مع علاء الدين كيقباز بن خسرو بن قلعج أرسلان السلجوقي^(٣) صاحب بلاد الروم^(٤)، وسبب ذلك أن جلال الدين قد أطاعه صاحب أرزن الروم^(٥)، وهو ابن عم علاء الدين كيقباز، وبينه وبين علاء الدين هذا عداوة مستحكمة، وكان صاحب أرزن الروم قد أعان جلال الدين على حصار مدينة خلاط، فخافهما علاء الدين كيقباز، فأرسل إلى الملك الكامل^(٦)، فأحضر الملك الكامل. أخاه الأشرف من دمشق، فحضر الأشرف، وسار إلى علاء الدين كيقباز، ثم سار نحو خلاط، فسمع جلال الدين بهما، فسار إليهما، فوصل إلى مكان يعرف بباسى حمار، وهو من أعمال أرزنجان^(٧)، فالتقوا هناك، وكان من علاء الدين كيقباز عشرين ألف فارس، وكان مع الأشرف نحو خمسة آلاف كلهم من العسكر الشجعان، وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له: عز الدين عمر بن على وهو من الشهامة في الدرجة العليا^(٨).

-
- (١) ابن واصل: مفرج الكرب، ج ٤، ص ٢٩٥ وما بعدها.
- (٢) الملك الأشرف: هو الأشرف موسى بن العادل أبي بكر أيوب، صاحب دمشق، ومدة ملكه ثمان سنين وأشهر، توفي يوم الخميس الرابع من محرم ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، راجع المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١، القسم الأول، ص ٢٥٦.
- (٢) علاء الدين كيقباز: صاحب بلاد الروم السلطان علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قلعج أرسلان السلجوقي، كان ملكا جليلا شهما شجاعا وافر العقل متسع الممالك تزوج بابنة الملك العادل وامتدت أيامه وتوفي في سابع شوال سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م. راجع ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مج ٥، ص ١٦٨.
- (٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٤٦.
- (٥) أرزن الروم: مدينة مشهورة من مدن أرمينية قرب خلاط، قديمة البناء، القزويني: آثار البلاد، ص ٤٩٤.
- (٦) الملك الكامل: هو ناصر الدين أبو المعالي بن محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، ولد ٧٦هـ/١١٨٠م، وتملك الديار المصرية تحت جناح والده عشرين سنة وبعده عشرين سنة وتملك دمشق قبل موته بشهرين، وكان صحيح الإسلام معظما للسنة وأهلها محبا لمجاسة العلماء وتوفي ٦٣٥هـ/١٢٣٨م. راجع ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٧، ج ١٣، ص ١٧١، ١٧٢، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، مج ٣، ج ٥، ص ١٧٢.
- (٧) أرزنجان: بالفتح ثم السكون وفتح الزاي وسكون النون وجيم وألف ونون، وأهلها يقولون أرزنجان بالكاف. وهي بلد طيبة مشهورة نزهة كثيرة الخيرات والأهل، من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط قريبة من أرزن الروم وغالب أهلها أرمن وفيها مسلمون وهم أعيان أهلها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج ١، ج ١، ص ١٢٥.
- (٨) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٨٦، ٤٨٧، ابن واصل: مفرج الكرب، ج ٤، ص ٩٥ وما بعدها.

وقبل بدء القتال، سقط جلال الدين مريضا، لذا فإنه لم يتمكن من تنفيذ خطته قبل اجتماع شمل جيش الأعداء، كما أن عددا من الجنود فى جيشه عادوا إلى بلادهم، بينما احتشد أعداؤه من كل صوب وتحالفوا لصد الخوارزميين^(١).

على أية حال، خرج جلال الدين من خلاط للقائهم وكان فى أربعين ألفا والتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فى يوم الجمعة، وكان الغلبة فيه للملك الأشرف علاء الدين وباتوا ليلة السبت على تعبيتهم إلى الفجر من يوم السبت فالتقوا واقتتلوا فانهمز جلال الدين وقتل من أصحابه خلق لا يحصى عددهم إلا الله وأنهزم مثلهم وأسر مثلهم^(٢)، ومضى منهزما مع عساكره، وعادوا إلى أذربيجان، فنزلوا عند مدينة خوى^(٣)، ولم يكونوا قد استولوا على شىء من أعمال خلاط^(٤) سوى خلاط، ووصل الملك الأشرف إلى خلاط فملكها^(٥).

أما صاحب أرن الروم، فقد أخذ أسيرا، بعد أن أحاطوا به، فقاتل عن نفسه أشد قتال، وأمر بتقييده وحمل على بغل^(٦)، فأحضر عند علاء الدين كيقباز ابن عمه، فأخذه وقصد أرن الروم، فسلمها صاحبها إليه، هى وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها^(٧).

وعندما ملك الملك الأشرف مدينة خلاط استلم علاء الدين كيقباز أرن الروم من صاحبها، وعاد جلال الدين إلى أذربيجان، وأقام بها حتى هجوم المغول عليه^(٨).

ثم وقعت المراسلة والملاطفة بين الملك الأشرف وعلاء الدين كيقباز وجلال الدين وتصالحوا وتحالفوا على ما بأيديهم وظان لا يتعرض أحد منهم إلى ما بيد الآخر^(٩).

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٥٩.

(٢) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٤٦.

(٣) خوى: مدينة معمورة من مدن أذربيجان، ذات سور حصين ومياه وأشجار، كثيرة الأهل، وأهلها أهل السنة والجماعات على مذهب واحد، ليس بينهم اختلاف لمذاهب، ينسب إليها كثير من العلماء. راجع القزوينى: آثار البلاد، ص ٥٢٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٨٧.

(٥) المقزيرى: السلوك، ج ١، قسم ١، ص ٢٤٠.

(٦) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٢٤٠.

(٧) ابن الأثير: المصدر السابق، مج ١٠، ص ٤٨٧.

(٨) ذكر النسوى مراسلة الأشرف للسلطان فى أمر الصلح، راجع النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٣٣٣ - ٣٣٥.

(٩) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج ٢، ص ١٤٦.

أما عن السبب الرئيسي الذى دفع الأشرف وعلاء الدين إلى عقد الصلح مع جلال الدين، فهو أنهم وجدوا أن المغول باتوا يهددون أملاك الخوارزميين فى فارس، فخشوا أن يستولى المغول على أملاك الدولة الخوارزمية من جديد فتدور عليهم الدائرة بعد ذلك الخطر المغولى الذى بات يهدد كيانه وكيانهم^(١).

أما جلال الدين فنجده يوافق على الصلح، فى محاولة منه لجمع شمل العالم الإسلامى أمام الخطر الأكبر ألا وهو الخطر المغولى.

وفى أول سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م، وصل المغول من بلاد ما وراء النهر إلى أذربيجان، وذلك أن أرسل مقدم الإسماعيلية الملاحده^(٢)، إلى المغول يعرفهم ضعف جلال الدين، ويحثهم على قصده، عقيب الضعف، ويضمن لهم الظفر به^(٣)، فقصدت طائفة منهم بلاده، واستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد^(٤)، ثم قصدوا أذربيجان، فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم، ولا يقدر على منعهم عن البلاد، قد ملئ رعبا وخوفا، وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلفوا عليه، وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر^(٥)، وكان السبب أنه كان له مملوك يحبه محبة شديدة مفرطة يقال له قلج، وكان خصيا^(٦)، واتفق موت ذلك المملوك فحزن عليه حزنا شديدا^(٧)، وأمر الأمراء أن يمشوا بجنازته عدة فراسخ، وأمر أهل البلدان أن يخرجوا بحزن وتعداد عليه، فتوانى بعضهم فى ذلك، فهم بقتلهم، حتى تشفع فيهم بعض الأمراء، ثم لم يسمح بدفن قلج^(٨)، بل ظل يرافقه فى

(١) حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٢١٤: ٢١٥.

Howorth : History of The Mongols, P. 130.

(٢) الإسماعيلية الملاحدة: نسبة إلى إسماعيل بن جعفر، ومن مذهبهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية، ولهم دعوة فى كل زمان، ومقالة جديدة بكل لسان، وأشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهرا باطنا، ولكل تنزيل تأويلا، ولهم ألقاب كثيرة على لسان قوم قوم. فبالعراق يسمون: الباطنية، والقرامطة، والمزدكية، وبخراسان: التعليمية والملاحدة. وهم يقولون نحن الإسماعيلية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم، وهذا الشخص راجع الشهرستانى: الملل والنحل، ج ١، ص ١٩١ - ١٩٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٩٠.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣١٧، ٣١٨.

(٥) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٩١.

(٦) ابن واصل: المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٨.

(٧) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٤٧.

(٨) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ١٣، ص ١٤٩.

كل مكان ويكيه ويربت على رأسه ووجهه، وقد امتنع عن الطعام والشراب^(١)، وكان يرسل الغلام بعضا مما كانوا يأتون به من طعام وشراب^(٢)، ولا يستطيع أحد يقول أنه مات، فانه قيل له مرة إنه مات فقتل القائل له ذلك، فكانوا يجلبون إليه الطعام ويعودون، يقولون: أنه يقبل الأرض، ويقول أننى أصلح مما كنت، فحلق أمراءه من الغيظ من هذه الحالة^(٣)، ففارقوه وانحازوا عنه مع وزيره، وأنه بقى حيران لا يدرى ما يصنع لاسيما عندما خرج المغول عليه، فحيثئذ دفن الغلام، وراسل الوزير، واستماله وخذعه إلى أن حضر عنده، فلما وصل إليه بقى أياما، ثم قتله جلال الدين^(٤).

على أية حال، نجحت طائفة من المغول فى الاستيلاء على الرى وهمذان - كما ذكرنا - ورحل السلطان جلال الدين من تبريز^(٥) إلى موقان^(٦)، بعد أن يتس من معونة الخليفة وعلاء الدين كيقيباز والسلطان الأيوبي لدفع المغول، كى يجمع من تفرق من جنوده الذين يقضون الشتاء فى موقان^(٧)، وعندما علم بمسير المغول إليه، اضطر إلى العودة ثانية إلى أذربيجان، فأقام بماهان^(٨)، وهى فضاء كثيرة الوحش من أنواع الصيد فشتا بها^(٩). فلما أنقضى الشتاء أخبر عز الدين صاحب قلعة شاهق بأن المغول قد ركبوا من أوجان^(١٠) لقصده، وأنهم تحققوا الآن أن السلطان بماهان، وأشار عليه بالعودة إلى

(١) ابن كثير: نفسه، ج٧، مج١٣، ص١٤٩.

(٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٩٥.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٤، ص٣١٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص٤٩١.

(٥) تبريز: بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر الراء وياء ساكنة وزاى، من أشهر مدن أذربيجان وهى مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالأجر والجص وفى وسطها عدة أنهار جارية والبساتين محيطة بها والفواكه بها رخيصة. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج١، ج٢، ص٤٣٠، ٤٣١.

(٦) موقان: بالضم ثم السكون والقاف وآخره نون، وأهله يسمونه موغان. ولاية فيها قرى ومروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى فأكثر أهلها منهم وهى باذربيجان يمر القاصد من أدربيل إلى تبريز فى الجبال ياقوت الحموى، مج٤، ج٨، ص٣٤١.

(٧) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص٤٠٤.

(٨) ماهان: ذكرها ياقوت ماوان، وكان لقياس أن تقلب هاء فيقال: ماهان، ولكن شبهوه بما الهمزة فيه منقلبة عن ياء أو واو. وأصل الكلمة من أوى يأوى إذا التجأ ومأوى الإبل بكسر الواو نادر فهو الموضوع يؤدى إليه وأن المياه تكثر به، ياقوت الحموى، معجم البلدان، مج٤، ج٨، ص١٩٨، ١٩٩.

(٩) النسوى: سيرة جلال الدين، ص٣٥٦.

(١٠) أوجان: أحدى مدن أذربيجان. النسوى: جلال الدين، حاشية ٢، ص٣٥٦.

أران^(١)، إذا كان بها عساكر متحصنة بجبالها^(٢)، وبها من التركمان من يساعده إلى الذهاب إلى بلاد الهند إذا حدثت الواقعة^(٣).

وفى أران عمل شرف الملك وزير جلال الدين على تحصين القلاع وجمع الأموال وراسل كلا من علاء الدين كيقباز والملك الأشرف ودعاهما للاستيلاء على أذربيجان وأران، ووصف جلال الدين فى مراسلاته بأنه رجل ظالم ومهزوم^(٤)، فاجتمعت هذه المراسلات عند السلطان جلال الدين^(٥)، فاستدعاه من أران وسجنه فى إحدى القلاع ثم قتله^(٦)، وسمع جلال الدين أن المغول فى طريقهم إليه فرحل صوب كنجة^(٧)، وفى كنجة قام بتأديب جماعة من أهلها كانوا أشياعا للمغول، وقتلوا بعضا من الرجال والعسكر الخوارزميين وأرسلوا برؤوسهم إلى المغول^(٨).

وأقام السلطان بكنجة سبعة عشر يوما، واستنجد بالملك الأشرف موسى على المغول^(٩)، وعندما رأى جلال الدين أن المغول عازمون على قصده، ورأى ما هو عليه من الوهن والضعف فاروق كنجة إلى بلاد خلاط، وأرسل إلى النائب بها عن الملك الأشرف يقول له: ما جئنا للحرب، ولا للأذى: إنما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم^(١٠).

ولما تمكن المغول من بلاد أذربيجان سار جلال الدين يريد ديار بكر^(١١) والجزيرة،

(١) أران: بالفتح وتشديد الراء وألف ونون، اسم أعجمى لولاية واسعة بلاد كثيرة فيها جنزه وهى التى تسنها العامة كنجه وبردة وشمكور وبيلقان، وبين أذربيجان وأران نهر يقال له الرس كلما جاوه من ناحية المغرب والشمال فهو من أران، وكان من جهة المشرق فهو من أذربيجان. ياقوت الحموى: البلدان، مج ١، ج ٢، ص ١١٤، ١١٥، لمزيد من التفاصيل عن أران. الإدريسي: نزهة المشتاق، مج ٢، ص ٨٢٠ وما بعدها.

(٢) النسوى: سيرة جلال، ص ٣٥٦.

(٣) النسوى: نفسه، ص ٣٥٧.

(٤) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٦٣.

(٥) النسوى: المصدر السابق، ص ٣٥٧.

(٦) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٦٣.

(٧) كنجة: بالفتح ثم السكون وجيم، مدينة عظيمة وهى قصبه بلاد أران، وأهل الأدب يسمونها جنزه بالجيم والنون والرأى. وكنجه من نواحي الرستان بين خورستان وأصبهان، ياقوت الحموى: البلدان، مج ٤، ج ٧، ص ١٤٥.

(٨) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٤٠٤.

(٩) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ٣٧٠.

(١٠) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٩٢.

(١١) أبو الفدا: مج ٢، ج ٣، ص ١٤٧.

على أن يقصد بعد ذلك الخليفة المستنصر بالله ملتجئاً إليه، مستنجداً به^(١)، وبملوك الطوائف ليساعده على المغول، ويخوفهم عاقبة أمرهم^(٢)، وبلغه أن المغول يطلبونه، ومجدون في أثره، فسار إلى ديار بكر (أمد)، وجعل اليزك^(٣) في عدة مواضع خوفاً من المغول، فجاءت طائفة من المغول يقصدون أثره فوصلوا إليه على غير الطريق الذي فيه اليزك، فأزعزعا به بظاهر مدينة أمد^(٤).

ثم ركب جلال الدين معه نفر يسير من أصحابه وولوا منهزمين، ونهب المغول العسكر، وقتلوا وظفروا به من العسكر، والباقون ولوا منهزمين يمينا وشمالا، وتمزقوا كل ممزق^(٥)، وتمكن بذلك جلال الدين من الفرار مرة أخرى^(٦)، واتجه إلى ميفارقين^(٧) فسار إلى قرية من قرأها، طالبا شهاب الدين غازي بن الملك العادل صاحب ميفارقين ثم لحقه المغول في تلك القرية فهرب جلال الدين، إلى جبل هناك وبه أكراد يتخطفون الناس فأخذوه وأرادوا قتله^(٨)، فقال جلال الدين لكبيرهم: إننى أنا السلطان فلا تستعجل في أمرى، ولك الخيار في إحضارى عند الملك المظفر شهاب الدين فيغنيك، أو إيصالى إلى بعض بلادى فتصير ملكا^(٩). فجعله الكردي عند امرأته ومضى إلى الجبل، فحضر كردي آخر معه حربة وقال للمرأة: لم لا تقتلون هذا الخوارزمي^(١٠)؟ فقالت: لا سبيل إلى ذلك، وقد آمنه زوجي، وعرف هذا الكردي انه هو السلطان. ولكنه قال: كيف تصدقونه بأنه السلطان. وقد قتل لى بخلاط أخ خيرا منه. وضربه بالحربة فقتله^(١١)، سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م^(١٢).

- (١) ابن واصل: فرج الكروب، ج٤، ص٣٢١.
(٢) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص١٥٠.
(٣) اليزك: ومعناه طلائع الجيش. راجع ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، حاشية٣، ص٣٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل، مج١٠، ص٤٩٢.
(٥) ابن واصل: فرج الكروب، ج٤، ص٣٢١.
(٦) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص١٦٣.
(٧) ميفارقين: بفتح أوله وتشديد ثانية ثم فاء وبعد الألف راء وقاف مكسورة وياء ونون. أشهر مدينة بديار بكر، قالوا سميت بميابت، وفارقين هو الخلاف بالفارسية يقال له بارجين لأنها أحسنت خندقها فسميت بذلك ياقوت الحموي: معجم البلدان، مج٤، ج٧، ص٣٤٩ وما بعدها.
(٨) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج٢، ج٣، ص١٥١.
(٩) النسوى: سيرة جلال الدين، ص٣٨١، ٣٨٢.
(١٠) ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص١٥٣.
(١١) أبو الفدا: المصدر السابق، ص١٥١.
(١٢) النسوى: المصدر السابق، ص٣٨٥، فاروق عمر: تاريخ إيران، ص٢٠٤، ٢٠٥.

وبذلك آلت حياة السلطان الشجاع إلى هذه النهاية المفجعة، وأرسل الملك المظفر صاحب آمد (ديار بكر) رجاله إلى الجبال التي لقي السلطان فيها مصرعه، فعثروا على جواده وسلاحه ورداءه، وكذلك على رفاتة، وأمر الملك المظفر بدفنها^(١).

وظل الناس نحو ٣٠ عاما بعد قتل جلال الدين يعتقدون أنه لا يزال حيا، لأنهم لم يحيطوا علما مؤكدا عن كيفية موته، ولم يشأ أحد أن يصدق موت هذا الرجل الشجاع، الذي قضى طوال حياته يكافح ضد المغول^(٢).

وتختلف رواية ابن الأثير عن النسوى في حقيقة مقتل جلال الدين، فنرى أن ابن الأثير يقول^(٣): "ولم نتحقق لجلال الدين خبرا ولا نعلم هل قتل، أو أحتفى لم يظهر نفسه خوفا من المغول، أو فارق البلاد إلى غيرها، والله أعلم".

خامسا: أثر الغزو المغولي على الحياة الفكرية في إقليم خوارزم؛

تأثر إقليم خوارزم بالغزو المغولي، تأثرا سياسيا واقتصاديا وعلميا وفكريا . أما عن الأثر السياسي والاقتصادي، فسياسيا: قد زالت الدولة الخوارزمية، وأنتقل الحكم في خوارزم من الدولة الخوارزمية الإسلامية إلى الدولة المغولية . أما عن الأثر الاقتصادي، فقد تم تخريب الإقليم كله، مما كان له أثر سلبي بعد الغزو مباشرة، إلا أن النشاط الاقتصادي، عاد ونشط عما كان عليه من قبل بعد فترة وجيزة من هذا الغزو .

أما الأثر العلمي والفكري:

فقد كان إقليم خوارزم وعاصمته الجرجانية مركزا لرجال الدين والعلماء والأدباء والشعراء وغيرهم من رجال العلم، وبغزو المغول لهذا الإقليم وتخريبهم معاهد ومراكز العلم وقتلهم للعلماء والشيوخ، والعفو عن بعضهم، وهجرة بعض العلماء والفقهاء مما كان له أكبر الأثر في اندثار إنتاجهم العلمي في إقليم خوارزم، مما أدى إلى تدهور العالم الإسلامي .

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٦٤ .

(٢) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٤٠٥ . لمزيد من التفاصيل راجع ان العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص ٢٤٧ .

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٩٤ .

وسوف نعرض لهذا الأثر في ثلاث نقاط:

- ١ - تخريب المعاهد والمراكز العلمية في إقليم خوارزم .
- ٢ - قتل العلماء والعفو عن بعضهم وأسبابه .
- ٣ - موقف المغول من الأسرى .

١ - تخريب المعاهد والمراكز العلمية في إقليم خوارزم

كان للغزو المغولي لإقليم خوارزم أهمية خاصة عن سائر الأقاليم الإسلامية، حيث كان من أهم أقاليم الدولة الخوارزمية، كما كانت عاصمته الجرجانية (كركانج)، قبيل الغزو المغولي، من أكثر المدن الإسلامية عمراناً^(١)، كما كانت مقراً للسلطين، ومجمعا للمشايخ والعلماء الكبار^(٢).

ويشير ابن الأثير الذي عاصر هذه الحوادث، وكتب عنها، إلى ما تعرض له المسلمون في إقليم خوارزم وغيره من الأقاليم الإسلامية من قتل وتخريب وسلب ونهب على يد المغول فيقول: لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأوخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك، فيا ليت أمى لم تلدنى، ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، إلى أن حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعاً، فنقول هذا الفعل، يتضمن ذكر الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى، التى عقدت الأيام والليالى عم مثلها عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقربها ولا ما يداينها^(٣).

وعندما جاء الغزو المغولي لإقليم خوارزم، وفتح المغول السد في نهر جيحون فغرق الإقليم، وأمر جنكيز خان بهدم ما لم يصبه التخريب^(٤)، فتهدمت الأبنية^(٥) وأكثر

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٧، عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية في إيران، ص ٦٦.

(٢) الجوينى: تاريخ جهان كشا، مج ١، ص ٣٠٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٣٩٩.

(٤) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٣.

(٥) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٢٢، عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المسلمون في آسيا الوسطى،

ص ١١٠.

ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين^(١)، فتهدمت هذه المدن العلمية وتهدمت الدكاكين التي كانت معظمها أماكن للعلم وملتقى العلماء

كما خربوا القصور التي كانت أحد أهم الأماكن العلمية في العصر الخوارزمي، هذه القصور التي شهدت من حاملي مشاعل العلم والأدب خلال العصرين السلجوقي والخوارزمي (البيروني ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) الزمخشري ت(٥٣٨هـ/١١٤٣م) ورشيد الدين الوطواط ت(٥٧٣هـ/١١٧٧م)، وفخر الدين الرازي ت(٦٠٦هـ/١٢٠٩م، والمطرزي ت(٦١٠هـ/١٢١٣م) وغيرهم من العلماء الأجلاء^(٢)، ولم يبق من هذه القصور سوى القصر العتيق «المعروف باسم كوشك أخجك^(٣)، كما خربوا المساجد وحرقوا المصاحف، وفعلوا ما لم يسمع مثله في تاريخ الإسلام ولا بعده^(٤).

كما قاموا بتدمير آلاف المجلدات من الكتب النفيسة وحرقوا المكتبات ودمروا المدارس ومعاهد العلم كافة، فلم يبق هناك كتاب يهتدى به^(٥)، وكانت مكتبة خوارزم من المكتبات الكبيرة المشهورة في بلاد فارس، فهدهما المغول وأتلفوا ما كان فيها من الذخائر العلمية^(٦).

وكان في خوارزم دار كتب، قد بناها شهاب الدين الخيوقى فى جامع الشافعية، ويقول النسوى «لم ير قبلها ولا بعدها مثلها^(٧)» ولما تواترت الأخبار بالغزو المغولى، وعزم شهاب الدين على مغادرة خوارزم إلى نسا^(٨)، شق عليه ترك كتبه، فأستصحب نفائسها^(٩)، وعندما قتل بيد المغول، وقعت هذه الكتب النفيسة فى أيدي العوام والسوقة، وقد بذل النسوى جهدا محمودا فى تتبعها وجمعها فظفر بعدة نفائس منها^(١٠). ولكنه

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٢، ج ٣، ص ٢٥٣.

(٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٧٩.

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٢، بارتولد: تركستان، ص ٦١٥.

(٤) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٢٧، ١٢٨، ابن الوردى: تاريخ ابن الوردى ج ٢، ص ١٣٨.

(٥) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١١٦.

(٦) يحيى وهيب الجبورى: الكتاب فى الحضارة الإسلامية، ص ٣٠٨.

(٧) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١١٠.

(٨) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان وبينها وبين مرو خمسة أيام وبينها وبين أبيورد يوم وبينها وبين نيسابور ستة أيام أو سبع أيام. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٤، ج ٨، ص ٣٨٥.

(٩) بارتولد: تركستان، ص ٦٠٧.

(١٠) النسوى: المصدر السابق، ص ١١٠، ١١١.

بعد عدة أعوام من ذلك أضطر إلى مغادرة بلاده إلى غير عوده، فترك جميع ما كان يملكه بقصر أهله^(١)، ويقول النسوي في هذا الصدد «ولم أتخسر مما خلفت بها إلا على الكتب»^(٢).

وكما خرب المغول المساجد والمدارس والدور والقصور وخزائن الكتب، خربوا أيضا الزوايا والأربطة والقبور، ولم يبق سوى قبر السلطان تكش ت٥٩٦هـ/١١٩٩م^(٣).

ويذكر ابن بطوطة الذي زار إقليم خوارزم في القرن الثامن الهجري: إنه عندما زاره، رأى بخارجه زاوية مبنية على قبر الشيخ الصوفي نجم الدين الكبرى (٦١٨هـ/١٢٢١م)، كما شاهد قبر الإمام الزمخشري ت٥٣٨هـ/١١٤٣م وعليه قبة^(٤).

أما حوانيت الوراقين فقد أصابها ما أصاب غيرها من معاهد العلم، حيث أثر الغزو المغولي على حوانيت الوراقين، كما أثر بشكل مباشر على صناعة الوراثة ونتاجهم^(٥).

وقد عبر ياقوت الحموي عن هذا الأثر، عندما كان في إقليم خوارزم، حيث كان يمارس تجارة الكتب، وصادفه وهو هناك خروج المغول، فانهزم بنفسه، وخرج من الإقليم^(٦).

وبذلك دمرت معاهد ومراكز العلم في إقليم خوارزم، مما أدى إلى اندثار النفوذ الحضاري الإسلامي بإقليم خوارزم وما وراء النهر، وآسيا الوسطى.

٢ - موقف المغول من العلماء:

رأينا كيف تم الغزو المغولي لإقليم خوارزم، وما أعقبه من تخريب وتدمير للمعاهد العلمية، التي كانت أماكن للبحث العلمي والتدريس، مما نتج عنه تخريب للإقليم كله، وخربوا المراكز العلمية، خاصة الجرجانية، التي كانت ملتقى العلماء من جميع البلدان والأقاليم، فجاءت جحافل المغول، وقتلت هؤلاء العلماء الأجلاء، كما قام المغول بالعبث

(١) بارتولد: المصدر السابق، ص ٦٠٧.

(٢) النسوي: المصدر السابق، ص ١١١.

(٣) بارتولد: المصدر السابق، ص ٦١٥.

(٤) الرحلة، ص ٦٠.

(٥) هالة شاكر عبد الرحمن: الوراق والوراقون في العصر العباسي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية

البنات، جامعة عين شمس، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ١١٩.

(٦) راجع: ابن القفطي: إنباه الرواة، ج ٤، ص ٩٣.

عن بعضهم وألحقوهم بالخدمة في بلاطهم وفر من فر من هؤلاء العلماء إلى البلاد والأقاليم المجاورة، مما حفظ بعضا من هذا التناج العلمي الضخم، الذى أنتج خلال العصرين السلجوقى والخورزمى .

أ - قتل العلماء وأسبابه:

بعد أن قام المغول بغرق خوارزم وتخريب الجوامع وغيره من معاهد العلم، قاموا بقتل العلماء والصلحاء والزهاد والعباد^(١). وكان ممن قتل من هؤلاء العلماء، الشيخ الفاضل العلامة شهاب الدين الخيوقى، وكان نائب السلطان علاء الدين محمد ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م، فى جميع مملكته^(٢)، وكان قد تشاور معه فى أمر المغول، وكان رأى هذا العالم بأن يكتب السلطان إلى عماله على أطراف مملكته وأن يحشد الجند للدفاع عن ديار الإسلام وأن يمنع المغول من المرور بصفاف نهر سيحون، ولكن للأسف السلطان لم يأخذ برأيه^(٣)، فخرج شهاب الدين إلى نسا^(٤)، ومعه خلق كثير من أهل خوارزم^(٥)، واستصحب معه نفائس كتبه، من دار الكتب التى كان قد بناها فى جامع الشافعية^(٦)، وأقام بنسا^(٧) ينتظر تجدد الأخبار من جهة السلطان ليقتصد خدمته، فورد الخبر بوروده بنيسابور ورحيله عنها، وتخير شهاب الدين فى أمره، إلى أن وصله بهاء الدين محمد بن سهل وهو أمير من أمراء نسا، وذكر أن السلطان لما ولى فارا من وجه المغول، تقدم إليه أن يمضى إلى نسا ويحذر الناس ويقول لهم: إن هذا العدو ليس كسائر العساكر، والرأى تخلية البلاد، والانسحاب إلى البرارى والجبال، حتى يفاجئوا المغول ويهزموهم^(٨).

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، مج ٢، ج ٣، ص ١٢٧ .

(٢) القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٢٩ .

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٦٦ .

(٤) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١١١ .

(٥) بارتولد: تركستان، ص ٦٠٧ .

(٦) كان بمدينة نسا رباط بناه رئيسها عماد الدين حمزة النسوى ت ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م، حسب رواية النسوى، ص ١١١، وهو رباط عظيم خارج المدينة ليس فى شىء من البلاد مثله فى عظم العمارة وكثر الخير، كما أمر بعمارة بناء عظيم للفقهاء والصوفية وغيرهم وكل له موضعه. راجع القزوينى، آثار البلاد، ص ٤٦٥ .

(٧) لما ملك السلطان علاء الدين محمد ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م، مدينة نسا، كان قد خرب القلعة، وكانت كبيرة جدا، وتسع خلقا كثيرا، وليس أحد من أهل المدينة غنيا ولا فقيرا، إلا وله فيها دار، وبنيت فى وسطها دار للسلطة أعلى منها، والماء يجرى منها إلى تحتها. راجع النسوى: سيرة جلال الدين منكبرى، ص ١١٢ .

(٨) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١١١ .

لما سمع شهاب الدين، وأهل خوارزم وغيرهم ما ذكره بهاء الدين عن لسان السلطان، اختاروا عمارة القلعة على الخلا والانسحاب، وشرع الوزير ظهير الدين مسعود ابن المثور الشاى فى عمارتها بالسخرة، فبنى عليها حائطا يشبه حيطان البساتين، وتحصن الناس بها، وأقام عندهم شهاب الدين الخيوقى، وجماعة من أهل خوارزم^(١).

واتفق أن جنكيز خان جرد إلى خراسان صهره تفجار نوين^(٢)، وأميرا من قواده اسمه يركانوين فى عشرة آلاف لنهبها وإحراقها^(٣).

بعد أن تمكن المغول من نهب وسلب مدينة نسا، أحضر شهاب الدين الخيوقى وابنه السيد الفاضل تاج الدين بين يدى تفجار نوين وير كانوين مكتوفين، وأحضرت صناديق خزائنه ففرغوها هم وقوف إلى أن حال الذهب بينه وبينهما، فقتلا شهيدين^(٤).

ومن رجال الدين الذين ذهبوا من خوارزم إلى «نسا» وقتلوا بيد المغول، المحدث مطهرا الدين النوزكاثى وكان حافظا لأسماء رجال الحديث عارفا بالحديث، وكان رجلا صالحا من رجال الدين^(٥)، ومن علماء ورجال الدين الذين قتلوا فى خوارزم دفاعا عنه أيضا، الشيخ الصوفى نجم الدين الكبرى^(٦)، وكان بخوارزم إلى أن قصده المغول فى ربيع الأول سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م، فخرج فيمن خرج لقتالهم مع جماعة من مرديه، وكانوا نحو ثمانين، فقاتلوا إلى أن استشهدوا جميعا على باب العاصمة، بعد أن قاتلوا معه، وجاهدوا فى سبيل الله، حتى أكرمهم الله بالشهادة^(٧).

ومن رجال الدين الذين قتلوا دفاعا عن خوارزم، الإمام أبو نصر عبد الرحيم بن النفيس بن وهبان، وكان عارفا بالحديث ورجاله وعلومه عارفا بالأدب، قيما بالغة جدا،

(١) النسوى: نفسه، ص ١١٢.

(٢) نوين: معناه أمير. راجع القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢٥.

(٣) النسوى: المصدر السابق، ص ١١٢.

(٤) النسوى: المصدر السابق، ص ١١٥.

(٥) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٤، ج ٨، ص ٤٠٧.

(٦) راجع الذهبى: تهذيب سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ١٨٨، السبكى: طبقات معينة الكبرى، ج ٨، ص ٢٥، ٢٦، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج ٣، ج ٥، ص ٧٩، ٨٠، حاجى خليفة: كشف الظنون، مج ٢، ص ٣٠٢١، إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، مج ١، ص ٩٠، الأذنة وى: طبقات المفسرين، ص ٢٢٠، ٢٢١، بطروشوفسكى: الإسلام فى إيران، ص ٣٣٨.

(٧) الداودى: طبقات المفسرين، ج ١، ص ٦٠ لمزيد من المعلومات، راجع الداودى: نفسه، ص ٥٨ - ٦٠.

خصوصا لغة الحديث، وكان مع ذلك فقيها مناظرا، مأمون الصحبة صحيح الخاطر مع دين متين، فقتله المغول فى إقليم خوارزم، ومات به شهيدا فى ٦١٨هـ/ ١٢٢١م^(١).

هكذا رأينا كيف قتل المغول العلماء ورجال الدين وأبناءهم وتلاميذهم ومريديهم أشد قتلة، كما قام المغول بقتل الأدباء والنحويين والشعراء وغيرهم من رجال الأدب منهم، القاسم بن الحسين بن محمد الخوارزمي، وكان ممن برع فى علم الأدب، وفاق فى نظم الشعر والشعر^(٢)، وكان مولده سنة ٥٥٥هـ/ ١١٥٩م، وتوفى مقتولا بيد المغول سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م^(٣).

لقد كان من أثر الغزو المغولى لإقليم خوارزم وتخریب المعاهد والمراكز العلمية، وقتل العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء ورجال الطب ومختلف فروع المعرفة، أن صارت الحياة الفكرية راكدة، لم تأخذ بالتطور العلمى، وانحصر العمل الفكرى فقط على الفقه والتصوف والبدع^(٤).

ب - هجرة بعض العلماء من إقليم خوارزم؛

كان إقليم خوارزم، وخاصة عاصمته الجرجانية، ملقى العلماء، وكان أيضا ملقى تجار الكتب، وكان بخوارزم من العلماء التجار أثناء الغزو المغولى، المؤرخ الجغرافى ياقوت الحموى المتوفى ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م^(٥)، وكان معه من علماء خوارزم المطهر بن سديد النوزكائى، وفى هذا العصر يقول ياقوت رأيت بخوارزم وخرج منه هاربا من المغول فى آخر سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م إلى ناحية نسا، وكان آخر العهد به وأظنه قتل بها قبل أن ينزل المغول على خوارزم بأكثر من عام فكأنه هرب إلى تعجيل شهادته^(٦). ويستمر ياقوت فى حديثه فيقول "ولقد اجتهدت به أن يقيم ربما نصطحب، فركن قليلا، ثم

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٢، ج ٣، ص ١٢٨، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج ٣، ج ٥، ص ٨٠ - ٨١، إسماعيل البغدادي: إيضاح المكنون، مج ٢، ص ٥٩.

(٢) ياقوت الحموى: معجم الأدباء، مج ٤، ص ٥٨٢، راجع ياقوت الحموى: المصدر نفسه، ص ٥٨٢ - ٥٩٢.

(٣) القرشى الحنفى: الجواهر المضية فى طبقات الحنفية، ج ٢، ص ٧٠٣، ٧٠٤، حاجى خليفة: كشف الظنون، مج ٢، ص ٩٢٢، ٩٩٣، إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، مج ١، ص ٢٢٨.

(٤) فامبرى: تاريخ بخارى، ص ١٨٠، ١٨١، عبد الفتاح مقلد الغنيمى: الإسلام والمسلمون فى آسيا الوسطى، ص ١١٢.

(٥) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج ٣، ج ٥، ص ١٢١، ١٢٢.

(٦) ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٤، ج ٨، ص ٤٠٧.

قال، لا أستطيع المقام فإننى رجل جبان وتخيل إلى أن الكفار نزلوا على خوارزم، وقد وقع سهم فى أحد من المسلمين، وأنظر إلى الدماء تسيل على ثيابه وجسمه، فأموت قبل وقتى فخرج على غاية الاختلال فى أشد وقت من البرد وخلف أهلا وولدا ونعمة حسنة ودارا وضيعة فترك ذلك كله ومضى هاجا إلى شهادته رحمه الله" (١).

وخرج ياقوت من خوارزم، هاربا من غزو المغول، وقاسى فى طريقه الضائقة والتعب حتى وصل إلى الموصل (٢).

وعندما غادر ياقوت الحموى إقليم خوارزم، كان به من العلماء الإمام المعتزلى الحنفى الكبير، أبو يعقوب السكاكى (٣) على أنه خرج من خوارزم بعد خروج ياقوت وتوفى السكاكى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م فى قرية الكندى بالقرب من مدينة ألمالغ، "ويذكرها الجغرافيون باسم ألمالغ" من أعمال فرغانة" (٤).

ومن العلماء الذين هجروا أيضا بهاء الدين بن الحسين الخطيبى الصوفى، ت٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، وكان من شعراء الصوفية، كما كان يرشد الناس صوفيا، وكان من المقربين للسلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، وأستقر به المقام فى قونية (٥) بدعوة من سلطانها علاء الدين كيقيباذ فضل بها حتى موته (٦).

هذا إلى جانب الصوفى نجم الدين الرازى ت٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م، وقد رحل بعد الغزو المغولى إلى بلاد الروم، وهناك ألف كتابه المعروف باسم "مرصاد العباد من المبتدأ إلى المعاد" وهو كتاب باللغة الفارسية (٧).

هذه الهجرة لهؤلاء العلماء أدت إلى انتشار لغتهم الفارسية خارج بلادهم وحرمت بلادهم من نتاجهم العلمى والأدبى.

(١) ياقوت الحموى: نفسه، ص ٤٠٧.

(٢) ابن القفطى: إنباه الرواة، ج ٤، ص ٨٣.

(٣) ياقوت الحموى: معجم الأدياء، مج ٥، ص ٦٤٨، ٦٤٧، القرشى الحنفى: الجواهر المضية، ج ٣، ص ٦٢٢، ٦٢٣، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج ٣، ج ٥، ص ١٢٢.

(٤) القرشى الحنفى: الجواهر المضية، ص ٦٢٣، دائرة المعارف: المجلد ١٢، ص ١٢، لمزيد من المعلومات راجع: دائرة المعارف، مج ١٢، ص ١٢، ١٣.

(٥) قونية: بالضم ثم السكون، ونون مكسورة، وياء مثناة من تحت حفيفة، من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها مدينة أقصرى، سكنى ملوكها. ياقوت الحموى: معجم البلدان، مج ٤، ج ٧، ص ١٠٢.

(٦) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، حاشية ١، ص ٥٧٨.

(٧) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسى، نقله من الفارسية إلى العربية محمد موسى هندواى، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، ص ٢١٥.

رأينا ما أحدثه الغزو المغولي من تخريب لإقليم خوارزم بمعاهدته ومراكزه العلمية، وكيف قتل المغول العلماء والزهاد والأدباء ورجال الأدب والشعر وفروع العلم سواء كانت النقلية أو العقلية، وذهب بذهاب هؤلاء العلماء الفقهاء، نتاجهم العلمي، أما العلماء الذى فروا، فكان نصيبهم أما الفشل أيضا أو النجاة من القتل، ومن نجا منهم، كانت له يد بيضاء فى نشر العلم فى البلاد التى ذهب إليها.

وإلى جانب ما أحدثه المغول من قتلهم للعلماء، فقد قرروا العفو عن بعضهم.

ج - العفو عن بعض العلماء؛

كان فخر الدين الرازى ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م الشافعى المفسر المتكلم^(١)، قد اتصل بالسلطان علاء الدين محمد خوارزم مشاه وحظى لديه^(٢) قد خلف ولدين الأكبر منهما يلقب ضياء الدين، وله اشتغال ونظر فى العلوم^(٣)، وقد تجند فى حياة أبيه وخدم السلطان علاء الدين محمد خوارزم مشاه^(٤)، والآخر وهو الصغير لقبه شمس الدين، وله فطرة وذكاء خارق، وكان كثيرا ما يصفه الإمام فخر الدين بالذكاء^(٥).

وعندما توفى فخر الدين الرازى وكان الوزير علاء الملك العلوى وزيرا للسلطان علاء الدين خوارزم مشاه قد تزوج ابنته^(٦)، وكان علاء الملك هذا فاضلا، متقنا العلوم والأدب والشعر بالعربية والفارسية^(٧).

ولما حدث ما حدث من الغزو المغولى، توجه علاء الدين هذا قاصدا جنكيز خان ومعتصما به، فلما وصل إليه أكرمه وجعله عنده من خواصه^(٨).

وكان جنكيز خان يعفو عمن يعطيه ويسدى إليه الخدمات^(٩)، فطلب علاء الملك منه الأمان لأولاد فخر الدين الرازى، فأعطاه الأمان لهم جميعا^(١٠).

(١) ابن القفطى: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٩٠.

(٢) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، مج ٣، ج ٥، ص ٢١.

(٣) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ج ٣، ص ٣٨.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٧، ج ١٣، ص ٦٧.

(٥) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٨.

(٦) الذهبى: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج ١٨٠، القسم الأول: وفيات ٦٠١ - ٦١٠، ص ٣٣٧.

(٧) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٨) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٩.

(٩) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٢٥، السيد الباز العربى: المغول، ص ١٤١.

(١٠) ابن أبى أصيبعة: المصدر السابق، ص ٣٩.

والجدير بالذكر أن المغول لم يدمروا ثلاث مناطق هي جنوب إيران وبلاد الروم والهند الغربية، حيث سد أمراؤها وسلاطينها الطريق على المغول إلى بلادهم بقبولهم دفع الخراج، فأصبحت هذه المناطق المراكز الرئيسية لانتشار اللغة الفارسية، وكان أمراؤها من كبار رعاة الأدب والشعر بهذه اللغة. لذا فقد صارت هذه المناطق الثلاث ملاذا للفارين من مذابح المغول^(١)، فحرموا بلاد فارس والعراق من نتاجهم العلمي، ولكن مما يذكر لهم أنهم نشروا اللغة الفارسية في هذه البلاد^(٢)، كما دخلت كثير من الألفاظ المغولية في اللغة الفارسية^(٣).

وعلى الرغم من هذا فإن علم التاريخ لم يتأثر كثيرا بهذا الغزو، فقد ألف محمد بن أحمد النسوي، ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م، كتابا في التاريخ «سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي»، وكان معاصرا لأحداث الغزو المغولي، كما كان الكاتب الخاص لآخر سلاطين الدولة الخوارزمية جلال الدين منكبرتي، ولكنه كتبه بعد وفاة هذا السلطان سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م^(٤).

كما ألف عطا ملك الجويني (٦٢٣ - ٦٢٤هـ / ١٢٢٦ - ١٢٨٥م) كتاب «جهان كشا» وتحدث فيه عن الغزو المغولي لبلاد الإسلام، كما ظل في خدمة المغول حتى توفي^(٥).

ولقد شهد إقليم خوارزم في العصرين السلجوقي والخوارزمي، قمة الحضارة والنضج الفكري والثقافي والإسلامي العربي الفارسي والتركي، فأنجب لنا الكثير من العلماء في مختلف فروع العلم، فانتشر بنتاجهم العلمي هذا الفكر الإسلامي، وجاء المغول ودمروا هذا المركز الحضاري بتخريبهم المعاهد والمراكز العلمية وحرقتهم الكتب والمصاحف، وقتلهم للعلماء، ففضوا بذلك على رواد الحضارة ورجال العلم والفكر في إقليم خوارزم.

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ١٣٥.

(٢) حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٣٠٧.

(٣) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي، ص ١٣٤.

(٤) النسوي: سيرة جلال الدين، حاشية ٥، ص ١٧٠.

(٥) الجويني: جهان كشا، مقدمة المترجم، ص ٤.

٣ - موقف المغول من الأسرى:

أ - موقف المغول من الأسرى من كبار رجال الدولة:

كان إقليم خوارزم خاضعا لإمرة ترکان خاتون والدة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، وكانت قد غادرت خوارزم، عندما سمعت بالغزو المغولي للإقليم فسارت ترکان خاتون بما معها من الحرم والخزائن، حتى وصلت قلعة إيلال وهي من أمهات قلاع مازندان، فأقامت بها^(١).

وقام المغول بمحاصرة تلك القلعة في أوائل سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م، واستمر حصارا أربعة أشهر، وفي النهاية ونتيجة لنفاذ الماء، اضطرت ترکان خاتون ووزيرها نظام الملك^(٢) للاستسلام، فنزلا من القلعة، واستسلما مع كل مرافقيهما لجيش جنكيز خان^(٣).

وأسرت ترکان خاتون وحملت إلى جنكيز خان^(٤)، ومعا نظام الملك وحريم وبنات خوارزم شاه وأولاده الصغار^(٥).

كانت أخبار ترکان خاتون تأتي جلال الدين... وكانت تقول «الأسر عند جنكيز خان وما أنا فيه من الذل والهوان أحب إلى من الرجوع إلى جلال الدين» وكانت تبغض جلال الدين بغضا شديدا^(٦). ولما كان السلطان جلال الدين أيضا قد انهزم على ضفاف نهر السند، فقد أسر حريمه أيضا وأرسلهن مع حريم خوارزمشاه علاء الدين إلى قراقرم، وظلت ترکان خاتون بتلك المدينة حتى وافتها المنية في سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢ - ١٢٣٣م^(٧).

(١) النسوي: سيرة جلال الدين، ص ٩٥، حافظ حمدي: الدولة الخوارزمية، ص ١٦١.

(٢) نظام الملك: هو الوزير نظام الملك محمد بن صالح، وقد أمضى مدة سبع سنوات مستقلا بإدارة الوزارة، وعزله السلطان علاء الدين محمد، فتوجه إلى خوارزم، فجعلته ترکان خاتون محل رعايتها، وأسندت إليه منصب الوزارة، وصارت أوامره نافذة في خوارزم، فتضايق السلطان من هذا التصرف، ولم يشرف أحدا بهذا المنصب رغم وجود العديد من العظماء من أصحاب القلم وكبار أهل الفضل والكرم في بلاطه، أمثال محمد النسوي صاحب «سيرة جلال الدين منكبرتي». راجع خواندمير: دستور الوزراء، ص ٣١٠، ٣١١.

(٣) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٣، بارتولد: تركستان، ص ٦٠٨.

(٤) النسوي: سيرة جلال الدين، ص ٩٦.

(٥) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٤.

(٦) النسوي: المصدر السابق، ص ٩٧.

(٧) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٣، راجع بارتولد: تركستان، ص ٦٠٩.

أما صغار أولاد السلطان فقتلوا جميعاً^(١). وأما بناته، فقد تزوج بكل واحدة منهن، إلا «خان سلطان» التي كانت زوجة نصره الدين عثمان صاحب سمرقند واصطفها جوجي لنفسه^(٢).

أما الوزير نظام الملك المعزول. فقد أقام بينهم مكرماً مشفعا^(٣)، حيث حمّله الأمراء لجنكيز خان وقالوا له: «إن هذا الوزير كان مطروداً ومغضوباً عليه من قبل السلطان علاء الدين محمد»، وألحوا عليه أن يجعله بين رجاله وكان يكلفه أحياناً بتنظيم حسابات بعض الولايات^(٤)، إلى أن أستولى جوجي على إقليم خوارزم ٦١٨هـ - ١١٢١م، وحملت إلى جنكيز خان مغنيات السلطان، وفيهن بنت زنجيجه، وكانت ذات جمال وحسن، فطلبها، زين الكحال السمرقندي، من جنكيز خان، وكان زين هذا قد داوى غين جنكيز خان من الرمد فوهبها له، وكان قبيح الصورة، فأبغضته، وأقامت عند نظام الملك يومين أو ثلاثة وهو يشرب، وجاءها الطلب من الكحال، فأبت، فأخبر زين جنكيز خان، فقال الوزير: أنا أحق بها من غيري، فغضب جنكيز خان، فقتله^(٥).

أما أوزلاغ شاه وأق شاه وجلال الدين منكبرتي، فقد ذكرنا ما حدث لهم من القتل، حيث كان جلال الدين منكبرتي ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م، آخر سلاطين خوارزم الذين ذكرناهم.

وبقتل هؤلاء لم تقم قائمة للدولة الخوارزمية وحلت محلها الدولة المغولية، ليبدأ تاريخ جديد بهؤلاء البرابرة الذين خرجوا ليدمروا ويقتلوا ويسفكوا الدماء «وإننا لله وإنا إليه راجعون».

ب - موقف المغول من الأسرى «الأهالي والحرفيين والصناع»:

استولى المغول على إقليم خوارزم، حيا حيا، وبيتا بيتا، وهدموا وقتلوا جميع الخلق بها حتى تمكنوا من الاستيلاء على الإقليم^(٦)، عدا ثلاثة أحياء لاذ بها من تبقى من

(١) النسوي: سيرة جلال الدين، ص ٩٧.

(٢) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٣، ٨٤، عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٥.

(٣) النسوي: المصدر السابق، ص ٩٧.

(٤) خواندمير: دستور الوزراء، ص ٣١١.

(٥) النسوي: سيرة جلال الدين، ص ٩٧، ٩٨، خواندمير: دستور الوزراء، ص ٣١١.

(٦) عطا ملك الجويني: تاريخ جهان كشا، مج ١، ص ٣٠٤.

الأهالى^(١)، وأرسلوا حين أعيتهم الجبال، وضاعت بهم السبل، إلى الفقيه الفاضل على الدين الخياطى محتسب^(٢) خوارزم، وكان السلطان علاء الدين محمد يحترمه لفضيلته فى العلم والعمل^(٣)، وذلك لطلب الأمان، ولم يقبل جوجى هذا المطلب بدعوى أن أوان ذلك قد فات^(٤).

أمر جوجى باحترام على الدين الخياطى، وأن ينصب له خيمة من خيامه، فلما حضر ذكر فى جملة ما قاله: إننا قد شاهدنا من هيئة الخان فقد أن أن نشاهد من زحمته، فاستشاط جوجى غضبا، وقال: ماذا رأوه من هييتى وقد أفنوا الرجال، وطاولوا القتال، فأنا الذى شاهدت هييتهم وها أنا الآن أريهم هييتى^(٥)، وأمر بترحيل كل من بقى من الأهالى إلى الصحراء، وفصلوا عنهم ما يزيد من مائة ألف كانوا من الحرفيين والصناع^(٦)، وتم ترحيلهم إلى الأقطار الشرقية حيث قاموا بعمارة تلك البلاد^(٧)، وزاد نسل الخوارزميين بها^(٨).

وأخذوا البنيين والبنات والنساء اللواتى ينتفع بهن^(٩)، وعوملوا جميعا معاملة السبى^(١٠)، وقسموا باقى الأسرى على الجيش فقتل كل واحد من الجنود المغول أربعة وعشرين من الرجال^(١١) وبعد أن فرغوا من الأهالى نهب المغول المدن وهدموا ما لم

- (١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٢.
- (٢) كانت وظيفة المحتسب من الوظائف ذات الشأن عند المسلمين بوجه عام، إذ كان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق فيفتشون القدر واللحوم وأعمال الطهارة ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حملة من السلع، ويشرفون على السقاين، وليس السراويل بما لا ينافى الآداب العامة، ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب الصغار ضربا مبرحا. واتسعت سلطته حتى ألزم رجال الشرطة (أن يقوموا بتنفيذ أحكامه. النسوى: سيرة جلال، حاشية ١، ص ١٧٢).
- وكان المحتسب يقوم بحلف اليمين قبل أن يتولى منصب، حيث يقسم على نفسه أنه سوف يعمل على احترام القوانين وسوف يودى عمله على أحسن وجه. الشيرزى: (عبد الرحمن بن نصر)، ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العرينى ط ٢، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٤٠٢هـ/ ١١٩٨م، ص ١٢٧.
- (٣) النسوى: سيرة جلال الدين، ص ١٧٢، حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٦٦.
- (٤) عباس إقبال: المصدر السابق، ص ٨٢.
- (٥) النسوى: المصدر السابق، ص ١٧٢.
- (٦) عطا ملك الجوينى: المصدر السابق، ص ٣٠٤، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥.
- (٧) بارتولد: تركستان، ص ٦١٤، السيد الباز العرينى: المغول، ص ١٣١.
- (٨) جهان كشا، ص ٣٠٥.
- (٩) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٢٣٥.
- (١٠) بارتولد: تركستان، ص ٦١٤، حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ١٦٦.
- (١١) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣٠٤، ابن العبرى: مختصر تاريخ الدول، ص ٢٣٥، عبد السلام عبد العزيز فهمى، تاريخ الدولة المغولية فى إيران، ص ٦٦.

يهدموه فى أثناء القتال . وبذلك دمر الإقليم الذى لم يكن له مثيل فى هذا العصر من حيث العمران والرقى وكثرة عدد السكان^(١) .

استمر حصار خوارزم نحو أربعة أشهر من ذى القعدة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م، إلى صفر ٦١٨هـ / ١٢٢١م، وقد بلغ القتلى عددا ضخما، مما جعل المؤرخين يمتنعون عن ذكره ولا يصدقونه^(٢) .

وفى ذلك يقول الجوينى^(٣) : لقد سمعت من عدد القتلى الذين سقطوا فى أعمال المقاومة والقتال بما يعادل خوارزم حدو الفعل بالفعل حتى أن ما سمعته لم أصدقه، ولم أكتب عنه شيئا، اللهم عافنا من كل بلاء الدنيا وعذاب الآخرة .

ويقول ابن الأثير^(٤) : وهذا ما لم يسمع مثله فى قديم الزمان وحديثه، نعوز بالله من الخور بعد الكور، ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الإسلام وأهله .

هكذا دخل إقليم خوارزم فى حوزة الدولة المغولية، حيث خضع إلى جوجى ابن جنكيز خان .

على الرغم من أن الحروب مع ما تلحقه بالإنسانية من أضرار، تقترب بفوائد ثقافية وفكرية تعوض على البلاد المهضومة بعض ما أصابها من خراب ودمار، أثناء الحرب، حيث يعقب دائما الغزوات الكبرى فى التاريخ فترة من الزمن تنتقل فيها حضارة الغالب إلى حضارة المغلوب، ثم يحدث أن تتقابل الحضارتان وتؤثر إحداها فى الأخرى وتتأثر بها، فتظهر حضارة جديدة تكون عبارة عن مزيج من الحضارتين معا^(٥) .

وخلاصة القول أن الغزو المغولى كان ولا يزال أكبر صدمة أصابت العالم الإسلامى، فلقد قضى على الدولة الخوارزمية كما استولى المغول على الأقاليم الإسلامىة، كما قاموا بتدمير المعاهد والمدن العلمىة التى كانت المراكز الأساسىة لتجمع العلماء والطلاب لتبادل نشاطهم الفكرى والعلمى، وقتلوا معظم العلماء، ورحل من تبقى منهم، إلى البلاد المجاورة، فحرموا بلادهم من العلوم التى كانت سائدة قبيل الغزو

(١) عباس إقبال: تاريخ المغول، ص ٨٢ .

(٢) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ٣٦٣، ٣٦٤ .

(٣) عطا ملك الجوينى: جهان كشا، ص ٣٠٥ .

(٤) ابن الأثير: الكامل، مج ١٠، ص ٤٢٢ .

(٥) حافظ أحمد حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول، ص ٣٠٤ .

المغولى، واتجهوا بفكرهم إلى بعض العلوم الأخرى التى تعبر عن آلامهم وأحزانهم، فنجد الفقيه مثلاً يعظ بالصفوية، والشاعر ظهر فى شعره معانى التصوف والزهد، كما أن اللغة الفارسية التى كانت سائدة، قد امتزجت بها بعض الكلمات المغولية، هذا المزيج أدى إلى ظهور حضارة جديدة عبارة عن مزيج من الحضارتين معاً، فدخل المغول بعد ذلك فى الإسلام، وأولوا عنايتهم بالعلماء والأدباء مثل عطا ملك الجوينى ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م وغيره من العلماء.

الخاتمة:

بعد ما سبق عرضه على امتداد صفحات هذا البحث نستطيع أن نستخلص عدة نتائج هامة تتعلق بتطور الحياة الفكرية فى إقليم خوارزم خلال العصرين السلجوقى والخوارزمى وأهمها:

- لقد لعب إقليم خوارزم دورا بارزا فى تطوير الحياة الفكرية، فقد كانت مدينة الجرجانية العاصمة مركزا رئيسا من مراكز الإشعاع الفكرى، كما كانت منارا للعلم ومقرا للعلماء على اختلاف تخصصاتهم العلمية، حيث انتشرت معاهد العلم وازدهرت الحركة العلمية، حيث شملت مدن وقرى إقليم خوارزم كافة، فخرج منه علماء كان لهم تأثير فى كافة الأقاليم الإسلامية بما نشره من علم وفكر خلال العصرين السلجوقى والخوارزمى.

- ولقد لعب سلاطين السلاجقة والخوارزميين ووزرائهم دورا بارزا فى تطور الحياة الفكرية، من خلال اهتمامهم بالعلم والعلماء، مما أدى إلى نشاط العلم والتعليم، وازدهار العلوم وضخامة الإنتاج العلمى والأدبى.

- كما كان سلاطين السلاجقة والخوارزميين أنفسهم، يدرسون الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة، بينما كان وزراءهم على المذهب الشافعى، فقد كان السلاطين يقومون ببناء المدارس والمساجد لتدريس مذهب أبى حنيفة، فى نفس الوقت الذى يقوم الوزراء ببناء مدارس لأصحاب مذهب الأمام الشافعى، مثل السلطان السلجوقى ملكشاه، ووزير نظام الملك، وتكش خوارزمشاه ووزير نظام الملك مسعود بن على، ولقد أدى هذا الاختلاف فى المذهب فى إقليم خوارزم إلى نشاط علمى وفكرى كبيرين تمثل فى نشر هذه المذاهب، وتدريسها، والتأليف فيها، مما نتج عنه هذه المؤلفات الفقهية الشافعية والحنفية.

- وكان لهجرة بعض العلماء واستقرارهم فى إقليم خوارزم أثر مباشر فى تطور الحياة الفكرية، مثل الفقيه الشافعى، «النسوى» ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥، والذى ابنتى مدرسة قبل المدارس النظامية، وذلك لتدريس الفقه على مذهب الإمام الشافعى، وروى عنه أهل خوارزم.

- كما استقر فى إقليم خوارزم أيضا، الأديب والنحوى واللغوى والطبيب ابن جرير الضبى الأصبهاني، ت ٥٠٧هـ/١١٣م، وهو الذى أدخل مذهب المعتزلة ونشره به،

وتمذهب أهل خوارزم بمذهبه، ومنهم المفسر والأديب النحوى المعتزلى الزمخشري،
ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م.

- وكان أهل خوارزم كلهم على المذهب الحنفي، عدا مدينة خيوق فأهلها شافعية،
من أشهر علمائها وفقهائها شهاب الدين الخيوقى، ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م.

- واستقر فى خوارزم أيضا محمد بن عبد الجليل البلخى ثم الخوارزمى
٥٧٣هـ / ١١٧٧م، المعروف بالرشيد الوطواط الأديب اللغوى الشاعر، وأصبح الكاتب
الخاص للسلطان آتسز خوارزمشاه، وابنه إيل أرسلان، ثم ابنة تكش بن إيل أرسلان.

- كما كانت المراسلات بين علماء خوارزم، وعلماء البلدان الإسلامية الأخرى تمثل
جانبا مهما من جوانب الحياة الفكرية فى إقليم خوارزم، مثل مراسلات الرشيد الوطواط
لبعض خلفاء وعلماء خوارزم، الذين رحلوا فيها وإليها فى طلب العلم.

- كما كانت للكتب التى دخلت إلى خوارزم، أثرها البالغ فى نشاط الحركة
الفكرية، من هذه الكتب، «المعول» فى القراءات، وصحيح البخارى، وصحيح مسلم،
ودواوين شعر الرشيد الوطواط، مما نتج عنه حركة علمية مزدهرة تمثلت فى الشرح
والتوضيح، والتلخيص والتأليف.

- كما كانت لمؤلفات علماء خوارزم، أهمية خاصة، مثل «الكشاف فى تفسير
القرآن» للزمخشري، والكتب المؤلفة فى علوم الحديث للزمخشري، ومطهر الدين
النوزكاشي، ونجم الدين الكبرى، وغيرهم من علماء الحديث، وكتب الفقه وأصوله التى
انتشرت وتطورت على مدى العصرين، فانتشرت المؤلفات على مذهب أبى حنيفة
ومناقبه، جنبا إلى جنب مع مؤلفات علماء الشافعية.

- كما كانت العلوم النقلية (الشرعية والأدبية) مرتبطة ارتباطا وثيقا، بالعلوم
العقلية، فنجد مثلا المؤرخ، محدثا وفقهيا وأديبا، وذلك أن التاريخ يعتمد على السرد
القصصى والأدبى مثل الفقيه المؤرخ محمد بن محمود بن عباس بن أرسلان، ت
٥٦٨هـ / ١١٦٠م، والذى ألف كتاب الكافى فى الفقه مع تاريخ خوارزمشاه.

وهكذا كان إقليم خوارزم فى العصرين السلجوقى والخوارزمى، قد شهد تطورا
كبيرا فى الحركة الفكرية، مما جعل منه مركزا من مراكز الإشعاع الفكرى والحضارى،
وأضحى مجمعا للعلماء وطلاب العلم، لعرض ومناقشة إنتاجهم العلمى والأدبى فى
المعاهد العلمية وخاصة فى قصور السلاطين ومجالس الوزراء، مما نتج عنه حركة فكرية

مزدهرة، لم تقف عند حد العرض والمناقشة، بل امتدت إلى الشروح والتوضيح والاختصار والتأليف، مما نتج عنه هذا الكم الهائل من المؤلفات العلمية فى مختلف أنواع العلوم النقلية والعقلية، هذه المؤلفات التى كان لها الفضل الأكبر فى حماية اللغة العربية والحضارة الإسلامية، بل والإسلام.

وفى تلك الفترة ظهر جنكيز خان والمغول على مسرح الأحداث وجاورت ممتلكاته أملاك الدولة الخوارزمية، وشرع فى السيطرة على أقاليم الدولة الخوارزمية، ولم ينتهى عام ٦١٨هـ / ١٢٢١م، إلا وكان المغول قد استولوا على إقليم خوارزم، وقاموا بهدم هذه المعاهد العلمية المتمثلة فى المساجد والمدارس وغيرها من معاهد العلم، التى أخرجت هؤلاء العلماء الأجلاء، كما أحرقوا الكتب والمصاحف، وقاموا بقتل العلماء والطلاب، أما العلماء الذين نجوا من القتل فقد هاجروا إلى بلاد الهند وآسيا الصغرى، وغيرها من الأقاليم المجاورة، فحرموا إقليم خوارزم وأقاليم آسيا الوسطى والعراق من إنتاجهم العلمى، وأداروا ظهورهم إلى العلوم التى سادت قبيل الغزو، واتجهوا إلى العلوم التى تواكب آلامهم وأحزانهم، ولكن يذكر لهؤلاء العلماء أنهم نشروا اللغة الفارسية فى البلاد التى هجروا إليها.

وبعد أن هدأت الأمور وانتهت حروب المغول، حدث اختلاط بين المغول والمسلمين، مما أدى إلى دخول بعض الألفاظ المغولية فى اللغة الفارسية، كما تأثر الوعظ بالزهد والتصوف فألفوا كتباً فى ذلك مثل كتاب «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» لنجم الدين الرازى المتوفى ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م، وتأثر أيضاً الشعراء، فانتشر الشعر الصوفى مثل الشاعر الصوفى بهاء الدين محمد، ت ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م، والكاتب محمد بن أحمد النسوى ت ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م، الذى كان الكاتب الخاص للسلطان جلال الدين منكبرى، اتجه إلى علم التاريخ، فألف «سيرة جلال الدين منكبرى» سرد فيه الغزو المغولى لإقليم خوارزم، ومحاولات جلال الدين منكبرى وجهاده ضد المغول حتى توفى ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م، وبوفاته انتهت الدولة الخوارزمية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ملحق رقم (أ)

خلفاء بني العباس في العصرين السلجوقي والخوارزمي

- الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٧٤ م).
- الخليفة المقتدى بأمر الله (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ / ١٠٧٤ - ١٠٩٤ م).
- الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧ - ٥١٢ هـ / ١٠٩٤ - ١١١٨ م).
- الخليفة المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩ هـ / ١١١٨ - ١١٣٤ م).
- الخليفة الراشد بالله (٥٢٩ - ٥٣٢ هـ / ١١٣٤ - ١١٣٤ م).
- الخليفة المقتفى لأمر الله (٥٣٢ - ٥٥٥ هـ / ١١٣٧ - ١١٦٠ م).
- الخليفة المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ / ١١٦٠ - ١١٧٠ م).
- الخليفة المستضيء بأمر الله (٥٥٦ - ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ - ١١٧٩ م).
- الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٧٩ - ١٢٢٥ م).
- الخليفة الظاهر بأمر الله (٦٢٢ - ٦٢٣ هـ / ١٢٢٥ - ١٢٢٦ م).
- الخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ / ١٢٢٦ - ١٢٤٢ م).
